



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

ظاهرة القرصنة

في ظل الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط

(241-31 ق.م.)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ القديم

تقديم

تامر يوسف ابو صعب.

إشراف

د. تغريد شعبان

2023

ظاهرة القرصنة في ظل الهيمنة الرومانية

على حوض البحر المتوسط

241 - 31 ق.م.

أ

الفهرس

هـ

شكر وتقدير

و

الملخص

ز

المقدمة

1

تمهيد

الفصل الأول:

(القرصنة وجغرافيته حوض البحر المتوسط)

10

جغرافيته حوض البحر المتوسط

أولاً

10

الموقع، والامتداد

1

11

سواحل حوض البحر المتوسط

2

11

السواحل الشمالية

أ

13

السواحل الجنوبية

ب

14

جزر البحر المتوسط

3

16

طرق الملاحة في البحر المتوسط

ثانياً

17

الطرق الملاحية بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط

1

17

الطريق الملاحي الشمالي

أ

18	الطريق الملاحى المتوسط	ب
19	الطريق الملاحى الجنوبى	ج
19	الطرق الملاحية بين إيطاليا والحوض الغربى للبحر المتوسط	2
19	الطريق الملاحى من شواطئ إسبانيا	أ
20	الطريق الملاحى من شواطئ بلاد الغال	ب
21	الطريق الملاحى من شواطئ شمال أفريقيا	ج
21	معاقلة القرصنة في حوض البحر المتوسط	ثالثاً
22	كيليكية	1
24	جزيرة كريت	2
25	إلورية	3
27	ليغوريا	4
28	أرخبيل البليار	5
29	أرخبيل مالطا	6
الفصل الثانى: (القرصنة، ونشاطات القرصنة في حوض البحر المتوسط)		
35	مفهوم القرصنة	أولاً
40	أشكال القرصنة	ثانياً
40	القرصنة غير المنظمة (الفردية)	1
42	القرصنة المنظمة (مهنة القرصنة)	2

3	القرصنة السياسيّة (الدوليّة)	45
ثالثاً	نشاطات القراصنة	49
1	نشاطات القراصنة ضدّ السفن	49
2	نشاطات القراصنة ضدّ الموانئ والتجمّعات السكّنيّة	52
رابعاً	ممارسات القراصنة	55
1	النهب والسلب	55
2	الخطف والفدية	57
3	تجارة العبيد	62
خامساً	روما والقرصنة السياسيّة	66
1	القرصنة السياسيّة المباشرة	67
2	القرصنة المرتزقة	70
الفصل الثالث:		
(حملات روما العسكريّة ضدّ القرصنة)		
أولاً	الحرب ضدّ إللورية	77
1	الحرب الإللورية الأولى 229 - 228 ق.م.	78
2	الحرب الإللورية الثانية 219 - 218 ق.م.	80
3	الحرب الإللورية الثالثة 169 - 168 ق.م.	83
ثانياً	الحرب ضدّ ليغوريا	85
ثالثاً	الحملة العسكريّة على جزر البليار 123 ق.م.	88
رابعاً	احتلال مالطا	90

92	الحرب ضد القرصنة في كيليكية	خامساً
97	الحرب على كريت	سادساً
100	حملة بومبيوس ماغنوس ضد القرصنة 67 ق.م.	سابعاً
100	تضخم ظاهرة القرصنة قبيل حملة بومبيوس	1
103	قانون جابينيوس	2
105	الحملة العسكرية ضد القرصنة	3
110	حملة بومبيوس وأبعادها السياسية	4
114	انتهاء خطر القرصنة	ثامناً
116	الخاتمة	
121	المصادر والمراجع	
127	ملحق الخرائط	
145	ملحق الجداول	
148	Abstract	

شكر وتقدير:

إلى من كان لهما الفضل الأكبر في وصولي إلى هذه المرتبة العلمية،

أُمِّي... أَبِي

إلى عائلتي، وأصدقائي، ورفاق الدرب..

إلى من كانت خير من شدٍ وموجٍ، ولم تبخل علي من علمها، ووقتها، وجهدها، وكانت لي قدوةً حسنةً
في مسيرتي العلمية...

الدكتورة تغريد شعبان...

أقدم لها بوافٍ المحبة، وخالص الشكر والامتنان والعرفان.

إلى السادة أساتذة قسم التاريخ

الذين كان لهم دورٌ كبيرٌ في بناء شخصيتي العلمية

إلى السادة أعضاء لجنة الحكم الموقرين

الذين تفضلوا بتقديم ملحوظاتهم القيمة، لإغناء هذه الرسالة.

إلى كل الزملاء من الكادر التعليمي والإداري في جامعة دمشق، وفرعها في السويداء، وكل من وقف
إلى جانبي وقدم لي المساعدة...

لكم مني كل الشكر والعرفان.

الملخص:

أدت سياسة روما الخارجيّة إلى حدوث جملة من المتغيّرات السياسيّة في مساحة حوض البحر المتوسّط كاملة، واختلال موازين القوى على السّاحة الدوليّة، ما نتج عنه حالة من الفراغ الأمنيّ في البحر المتوسّط، استمرّت تقريباً بين منتصف القرن الثّالث والأوّل قبل الميلاد. وفي قلب هذا الفراغ الأمنيّ، والفوضى الناجمة عن سياسة الهيمنة الرومانيّة، وجد القراصنة بيئة خصبة؛ لممارسة نشاطاتهم، وفرصة مثاليّة؛ لأعمال القرصنة على نطاق واسع لم يشهد تاريخ المنطقة مثيلاً له من قبل. إذ حوّل القراصنة كثيراً من المناطق إلى معازل محصّنة لهم، يشنّون منها الغارات على السفن المارة بالجوار، وحتّى على الموانئ والمدن الساحليّة، ولم يأت الرّبع الأوّل من القرن الأوّل قبل الميلاد على نهايته، حتّى غدت حركة الملاحة في البحر المتوسّط شبه مستحيلّة نتيجة الخوف من خطر القراصنة. ولما كانت روما قد أصبحت سيّدة حوض البحر المتوسّط، والقوّة الكبرى المهيمنة فيه، وقعت على عاتقها مهمّة محاربة القراصنة، ووضع الحلول للحدّ من هذه الظاهرة.

الكلمات المفتاحيّة: القرصنة، القراصنة، الهيمنة الرومانيّة، الفراغ الأمنيّ، تجارة العبيد، الخطف والفدية، المرتزقة، حملة بومبيوس ماغنوس.



المقدمة:

كان البحر المتوسط منذ أقدم العصور، ولا يزال صلة وصل بين كثير من الشعوب، ووسيلة تبادل تجاري، وملتقى لأعرق الحضارات الإنسانية التي أثرت وتأثرت ببعضها على الأصعدة المختلفة؛ بدءاً من الأساطير المحكيّة، والمعتقدات والعادات المجتمعيّة، إلى اللّغة والكتابة، ثم إلى العلوم الإنسانية، كالطبّ والفلك والفلسفة، وانتهاءً بالتّطور الذي طرأ على الأنظمة السياسيّة، والنتائج الفكريّة، والفنيّة، والأدبيّة.

ومنذ الأيّام الأولى التي نزل فيها الإنسان البحر بغرض الصيد أو التنقّل والتجارة، بدأت ظاهرة القرصنة بالتشكّل بوصفها نوعاً من أنواع اللصوصيّة، أو السطو المسلّح، ولكن باستخدام البحر بدلاً من البرّ. وأخذت هذه الظاهرة بالتّطور، والتجدر في بعض المجتمعات حتّى غدت عادةً ملازمة لوجود الملاحة البحريّة.

وقد ذُكرت أعمال القرصنة في العديد من الوثائق العائدة إلى لألف الثاني قبل الميلاد في كلّ من مصر القديمة وفينيقية، وكذلك في بلاد الإغريق التي ذاع فيها صيت ملك كريت الأسطوري "مينوس" الذي سعى جاهداً إلى قمع القرصنة. وتكاد معظم المصادر الأدبيّة الإغريقيّة والرومانيّة لا تخلو من ذكرٍ للقراصنة طيلة الألف الأوّل قبل الميلاد.

إلا أنّ ظاهرة القرصنة أخذت بالتضخّم نحو مُنتصف القرن الثاني قبل الميلاد على نحوٍ مضطردٍّ وغير مسبوق، وما أن شارف العقد الثالث من القرن الأوّل قبل الميلاد على الانتهاء، حتّى غدت الملاحة في البحر المتوسط شبه مستحيلة؛ نتيجة الانتشار الكبير للقراصنة، وإغلاقهم الطرق البحريّة أمام التّجار والمسافرين.

1- الإشكالية البحثية، وتساؤلاتها:

إنَّ التضخُّمَ الذي شهدته ظاهرة القرصنة في تلك المرحلة من تاريخ حوض المتوسط هو بكلِّ تأكيد ليس وليد الساعة، ولم يكن حدثاً فجائياً؛ وإنما هو تراكمٌ لعواملٍ عدَّةٍ أسهمت مجتمعةً في تحوُّل القرصنة من شكلٍ من أشكال اللصوصية، إلى مشكلةٍ كبيرةٍ هدّدت أمنَ أقوى دولةٍ في حوض المتوسط آنذاك، أي روما، واستقرارها.

وسيتبيّن من هذه الدراسة أنَّ بداية التضخُّم الحاصل لظاهرة القرصنة يعودُ إلى منتصفِ القرنِ الثالثِ قبلَ الميلاد؛ أي معَ بدايةِ مرحلةِ التوسُّعِ الرومانيِّ في البحر المتوسط، وتطبيقِ سياسةِ روما الخارجيةِ القائمةِ على إضعافِ دولِ حوضِ المتوسط، ومن ثمَّ بسطِ الهيمنةِ الرومانيةِ عليها واحدةً تلوَ الأخرى.

وفي ظلِّ سياسةِ الهيمنةِ الرومانيةِ تلك، أخذت ظاهرة القرصنة بالازدهار على نحوٍ ملحوظٍ في عددٍ من مناطق حوضِ البحر المتوسط، ومعَ مرورِ الوقتِ تحوّلت تلك المناطقُ إلى قلاعٍ ومعازلٍ دائمةٍ للقراصنة، أو ملاجئٍ مؤقتةٍ؛ لقضاءِ الشتاء، ينطلقون منها لشنِّ غاراتهم المفاجئةِ على السفنِ المارةِ من طرقِ الملاحةِ القريبة، ويُثيرونَ الرعبَ والفوضى في البرِّ والبحر.

يدعو تضخُّمُ ظاهرةِ القرصنةِ المتزامنُ معَ مرحلةِ بسطِ الهيمنةِ الرومانيةِ على حوضِ البحر المتوسطِ إلى التساؤلِ عنِ العلاقةِ القائمةِ بينَ هذينِ الأمرين، ولا سيَّما أنَّ خمودَ ظاهرةِ القرصنةِ قد تزامنَ معَ إتمامِ السيطرةِ الرومانيةِ على حوضِ المتوسطِ كاملاً

أيضاً، وتحوّله إلى بحيرة رومانيّة، أو ما يُسمى بلسان الرومان "Mare Nostrum"؛ أي بحرنا.

وبعدّ جمع المعلومات التي وفّرتها المصادر الأدبيّة عن تضخّم ظاهرة القرصنة، طُرحت تساؤلات عدّة، ووُضعت تلك المعلومات موضع النّقد العمليّ، وجرت مقارنتها، واستقراء الأبعاد السياسيّة الكامنة خلفها، في محاولة لتقديم إجابات وبلوغ الهدف من هذه الدراسة. ويحسّن ترتيب تلك التّساؤلات على النّحو الآتي:

- ما العوامل التي أدّت إلى تضخّم ظاهرة القرصنة على نحوٍ متزايدٍ، ومتزامنٍ مع مدّة بسط الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط؟
- ما الأسباب التي أدّت إلى خمود ظاهرة القرصنة بالتزامن مع اكتمال الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط؟
- هل كان لروما يدّ في ازدياد نشاط القراصنة في البحر المتوسط، وما مصلحتها من ذلك؟
- هل المعلومات التي قدّمتها المصادر الأدبيّة عن تضخّم ظاهرة القرصنة كانت تستند إلى معلوماتٍ حقيقيّة، أم أنّها كانت تحاول إعطاء المشكلة حجماً أكبر من حجمها الطبيعيّ؟
- هل كانت الحملات العسكريّة التي أرسلتها روما موجّهة فعلاً للقضاء على القراصنة؟ أم أنّها كانت تُخفي وراءها أسباباً أخرى؟

- هل نجحت الحملة العسكرية الشاملة بقيادة بومبيوس ماغنوس في القضاء على القرصنة نهائياً كما صورت ذلك المصادر؟ أم أنّ المعلومات التي قدّمتها المصادر كانت شكلاً من أشكال الدعاية السياسيّة؟

2- هدف البحث:

تهدف هذه الرسالة إلى فهم العوامل التي أدت إلى تضخم ظاهرة القرصنة في ظل الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، منذ الانتصار على قرطاجة عام 241 ق.م في الحرب البونية الأولى، وحتى احتلال مصر عام 31 ق.م بعد معركة أكتيوم، وكيفية خمود نشاط هذه الظاهرة.

3- أهمية البحث، ومبرراته:

تكمن أهمية البحث في توضيح حالة التضخم الذي وصلت إليه ظاهرة القرصنة، مع نهاية القرن الثاني، ومطلع القرن الأول قبل الميلاد، وذلك بالنظر إليها في إطار العلاقات السياسيّة بين دول حوض البحر المتوسط، وتوازيًا مع سيطرة روما على حوض البحر المتوسط كاملاً. ونظراً للأهمية البالغة لهذه المدّة الزمنيّة، والدور الكبير الذي لعبته القرصنة فيها، كان لا بدّ من تناول هذه الظاهرة بشكل خاص، على ضوء المعطيات التاريخيّة المتوفرة.

4- مصطلحات البحث:

- (Hostis Populi Romani) أعداء الشعب الروماني: وهي عبارة تطلق على كلّ من ناصب الرومان العداء، ولم يدخل تحت طاعتهم.

- (Mare Nostrum) بحرنا: أطلق الرومان هذا المصطلح على البحر المتوسّط بعد السيطرة عليه، وتحويله إلى بحيرة رومانية.
- (Pax romana) السلام الروماني: يطلق هذا المصطلح على حالة الاستقرار السياسي، والأمني الذي حلّ مع مطلع عصر الامبراطوريّة الرومانية.
- (Literary Sources) المصادر الأدبيّة: يطلق هذا المصطلح على المصادر الكتابية الإغريقية والرومانية.
- (Senate) السناتو: مجلس الشيوخ الروماني، يتمتّع بصلاحيات واسعة، أهمّها إعلان الحرب، وإقرار السلم، وإدارة الشؤون الخارجية.
- (Imperium): تعني السلطة المطلقة، أو السلطة العليا في الدولة، تخول حاملها صلاحيات واسعة جداً.
- (Consul) القنصل: أعلى المناصب الإداريّة الرومانيّة، يشغل هذا المنصب قنصلان، يُنتخبان لمدة عام واحد، ويتمتّعان بالسلطة العليا "امبريوم"، حلّ هذا المنصب في العصر الجمهوري مكان منصب الملك.
- (Pro-consul) قنصل سابق: يطلق على حكام الولايات، والقادة الذين سبق لهم أن شغلوا منصب القنصل.
- (Praetor): أحد الوظائف الرومانيّة العامّة، يلي القنصل من حيث الأهمية، يتمتّع شاغل هذا المنصب بالسلطة العليا "امبريوم".

5-الدراسات السابقة:

أثارت ظاهرة القرصنة اهتمام الباحثين في أنحاء العالم المختلفة، ما دفعهم إلى تتبع آثارها منذ أقدم العصور حتى العصور الحديثة، محاولين وضع تاريخ شامل لها. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة "ظاهرة القرصنة في العالم القديم"، إذ أخذت العديد من الدراسات الأكاديمية تتناول جوانباً متعددة من هذا الموضوع. وقد خرجت هذه الدراسات بنتائج علمية غاية في الأهمية، وطرحت تحليلات ووجهات نظر مختلفة، ما أتاح الفرصة أمام الباحثين للنقاشات العلمية، والاستفادة من المعلومات التراكمية للدراسات السابقة في تقديم دراسات جديدة أكثر اختصاصاً. وهكذا فقد اعتمدت جملة من تلك الدراسات التي وقّرت للبحث خزينة غزيرة من المعلومات، وأرضاً صلبة للبناء عليها. ومن أهم هذه الدراسات:

-De Souza, Philip, (1992), **Piracy in The Ancient World; From Minos to Mohammed**, thesis of P.HD in History, Cambridge University.

تُعدُّ دراسة دي سوزا من أفضل الدراسات إن لم تكن أفضلها، إذ اعتمدت على كم وفير من النقوش والوثائق الأثرية، مع المصادر الأدبية، هذا فضلاً عن اعتمادها على نتائج العديد من الدراسات والأبحاث ذات العلاقة بالموضوع. ينطلق دي سوزا من وضع تعريف عام لمفهوم القرصنة، وينتقل إلى دراسة صورة القرصنة في المصادر الأدبية مع دراسة لغوية للمفردات الدالة على القرصنة في اللغتين اليونانية واللاتينية. ويُفرد بعد ذلك فصلاً كاملاً لدراسة العلاقة بين الحرب والقرصنة، إذ أكّد صعوبة التمييز بين الجانبين في العصور القديمة. بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن التجارة والقرصنة، وينتهي بالحديث عن إخضاع القرصنة في العالم القديم. تتميز

هذه الدراسة بالدقة والموضوعية في تناول المصادر، وتقدم تحليلات عميقة، ووجهات نظر سليمة، ما يجعلها مرجعاً مهماً جداً لأي جانب من جوانب موضوع القرصنة.

-Beek, Aaron, (2015), **Freelance warfare And Illegitimacy, The Historian's Portrayal of Bandits, Pirates, Mercenaries and Politicians**, Thesis of P.HD in History, Advised by: Andrew Gallia, Minnesota University.

قدم آرون بيك العديد من الدراسات عن موضوع القرصنة. وقد حاول في دراسته هذه التمييز بين القراصنة، واللصوص، والمرترقة، وعلاقاتهم بالسياسيين، ورجال الدولة. إذ انحصرت دراسته بين القرن الثاني والتصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، أي في أثناء ما يمكن تسميته "العهد الذهبي للقرصنة في العالم القديم".

-Trimboli, Michael, (2016), **Piracy; Lessons From The Past**, Thesis of Master in Arts, Calgary University.

حاول تريمبولي بوساطة هذه الدراسة التركيز على الأسباب التي أدت إلى نشوء القرصنة في العالم القديم عامة، وفي العالم الإغريقي الروماني خاصة. وقد كان هدفه من هذه الدراسة المختصرة استخلاص العبرة من تاريخ هذه الظاهرة، والاستفادة منها في الوقت الحاضر، مع الأخذ بالحسبان أن القرصنة في جوهرها واحدة في كل العصور.

اشتركت الدراسات التي تناولت موضوع القرصنة في العالم القديم جميعها بكثير من الخطوط العريضة، إلا أن كل واحدة منها تميزت من سابقتها في بعض التفاصيل التي ربما كانت قد أغفلت، أو لم تجر دراستها على نحو كافٍ. في حين تناولت بعضها الموضوع من منظور آخر مختلف عن كل ما سبقه.

وقد حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على ظاهرة القرصنة، ليس بوصفها نشاطاً مرافقاً للملاحة البحريّة فحسب؛ بل بوصفها عنصراً فاعلاً على مسرح السياسة الدوليّة أيضاً، وتحديدًا بالتزامن مع مرحلة بسط الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط. وحاولت الدراسة الانتقال بظاهرة القرصنة من المفهوم العام للكلمة، إلى المفهوم الدقيق لها، بفكر المجتمع في العالم القديم. ومعرفة الممارسات المرتبطة بهذه الظاهرة، وعلاقتها بالأوضاع والمتغيّرات السياسيّة السائدة، ومن ثمّ فهم الأسباب التي أدت إلى ازدهار القرصنة، ومن ثمّ خمود نشاطها على نحو كبير.

6- منهج البحث، وأدواته:

اعتمد البحث على التنوّع في تطبيق "المناهج العلميّة التاريخيّة" القائمة على إخضاع المعلومات الواردة في المصادر إلى النقد، والتحليل، والمقارنة؛ بغية الوصول إلى أقرب صورة للأحداث التاريخيّة.

واعتمد المنهج الوصفيّ أيضاً في تقديم المعلومات الجغرافيّة، وسرد بعض الروايات التاريخيّة بلسان المصادر الأدبيّة. فضلاً عن اعتماد المنهج الاستقرائيّ، ولا سيما في دراسة المصادر الأدبيّة عندما تكون صورة الوقائع ضبابيّة، وتحتاج إلى جمع معلومات متفرّقة، وإشارات خفيّة من أماكن عدّة؛ لإيضاحها.

تعتمد الدراسات التاريخيّة أدوات أساسيّة لا يمكن الاستغناء عنها بأيّة حال من الأحوال، وأهمّ هذه الأدوات هي "الوثائق"، فحيث لا توجد وثائق لا يوجد تاريخ. ومن ثمّ فإنّ الوثائق هي المصدر الأساسي للمعلومات التي سنبني عليها هذه الدراسة.

كانت أهم الوثائق المتعلقة بموضوع الدراسة هي المصادر الأدبية، التي تعود إلى مؤرخين وكتاب يونان أو رومان. ومن المعروف أنه لا بد من الحذر عند استخدام المعلومات الواردة في مثل هذه المصادر؛ لأنها كثيرًا ما تكون خاضعة إلى الميول السياسية، أو الروايات الشخصية التي قد لا تكون برمتها وقائع حقيقية.

إن المصدر الأول والأساسي لموضوع الدراسة هو "المصادر الأدبية"، وهي مؤلفات باللغتين اليونانية واللاتينية مترجمة جميعها إلى الإنكليزية. ومع الأهمية البالغة لهذه المصادر، إلا أنها في كثير من الأحيان تميل في رواياتها إلى جانب روما، لذلك ينبغي تناولها بقدر من الحذر. وأهم تلك المصادر مرتبة من الأقدم إلى الأحدث:

- التواريخ "The Histories"، للمؤرخ اليوناني بوليبيوس "Polybius" (200-120 ق.م.)، وهو مؤلف من 40 كتابًا لم تصل جميعها إلينا كاملة، ووصل بعضها على شكل شذرات. تناول المؤلف تاريخ روما بين عامي (220-144 ق.م.)، وقد قدّم معلومات مفصلة عن الحرب مع القرصنة الإلوريين.
- الخطابات "Orations"، للسياسي والخطيب الروماني الشهير شيشرون "Cicero" (106-43 ق.م.)، وهي مجموعة من الخطب التي ألقاها شيشرون؛ لإدانة أو بعض الشخصيات في روما أو لتبرئتهم. وقد زوّد الدراسة بقدر جيد من المعلومات عن القرصنة في القرن الأول قبل الميلاد.
- جغرافية استرابو "The Geography of Strabo" للجغرافي اليوناني استرابو "Strabo" الذي عاش في المدة بين (64 ق.م - 21 م.)، وهو مؤلف من 17 كتابًا،

يتناول جغرافية حوض البحر المتوسط، والدول المحيطة به، ويقدم بعض المعلومات التاريخية عن حياة السكان وعاداتهم. وقد ساعد في الحصول على بعض المعلومات عن القرصنة في ليغوريا وجزر البليار. وقد تُرجمت كتب استرابو إلى اللغة العربية (عن الأصل اليوناني)، في جامعة قار يونس الليبية. ولكن اعتمد على الترجمة الانكليزية؛ لأن إمكانية الوصول إلى الترجمة العربية كاملة غير متاحة.

- تاريخ روما "The History of Rome" للمؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس/ ليفي "Livius" (59 ق.م - 17 م.)، وهو مؤلف من 142 كتاباً لم يصل إلينا منها كاملة إلا الكتب 1 - 45، ويتناول تاريخ روما منذ تأسيسها حتى عصره، وعرف باسم "منذ تأسيس المدينة" أيضاً. وقد قدم ليفيوس معلومات عن الحرب الإلورية الثالثة، وبعض المعلومات المتفرقة عن الحرب في ليغوريا.

- التراجم المتوازية "Parallel Lives" للمؤرخ وكاتب السير اليوناني بلوتارخ/ بلوتارخوس "Plutarch" (46 - 120 م.)، ظهر هذا الكتاب بين عامي (105 - 115 م.)، وهو تراجم لحياة عدد من الأعلام اليونان والرومان؛ إذ يصف سيرة كل علم من أعلام اليونان، ويقارنها بنظير له من أعلام الرومان. وقد قدم للبحث معلومات مفصلة عن حادثة اختطاف القرصنة ليوليوس قيصر، وكذلك عن حملة بومبيوس ماغنوس ضد القرصنة. ولا بد من الإشارة إلى وجود ترجمة عربية لهذا المؤلف، وقد جاءت في ثلاثة أجزاء، وصدرت في بيروت عام 2010، وهي ترجمة "بتصرف" مفيدة للقارئ العادي، إلا أنها غير دقيقة بما يكفي للباحثين المختصين.

- التاريخ الروماني "Roman History" للمؤرخ اليوناني أبيان/ أبيانوس "Appian" (95 - 165 م.)، وهو مؤلف من 24 كتاباً لم تصل جميعها إلينا كاملة، إذ فقد

بعضها، ووصل بعضها الآخر على شكل شذرات. اعتمدَ فيها طريقة التأريخ وفقاً للمناطق، أو الأشخاص. وقد قدّم الكتابُ العاشر "الحروبُ الإلورية"، بعضَ المعلوماتِ عن القرصنة في إلورية بينَ منتصفِ القرنِ الثالثِ والثاني قبلَ الميلاد. في حين قدّمَ الكتابُ الثاني عشر "الحروبُ ضدَّ مثيرداتس" معلوماتٍ قيّمةً جداً عن ازدهارِ القرصنة ما بينَ منتصفِ القرنِ الثاني والأولِ قبلَ الميلاد.

- ملخّصُ التاريخِ الروماني "Epitome of Roman History" للمؤرّخِ الروماني فلوروس "Florus" الذي يُرجّحُ أنّه عاشَ بينَ أواخرِ القرنِ الأولِ وبدايةِ القرنِ الثاني الميلادي. وهو رواياتٌ مختصرةٌ للحروبِ الرومانية، يُمجّدُ فيها انتصاراتِ روما. وقد قدّمَ معلوماتٍ جيّدة، ومختصرةً عنِ القرصنة في كلّ من جزرِ البليار وكريت وكيلىكية.

اعتمدت جملةٌ منَ المراجعِ العلميّةِ المتخصّصةِ في موضوعِ الدراسة أيضاً، وهي مراجعٌ أكاديميّةٌ ذاتُ قيمةٍ علميّةٍ كبيرة، وأهمّها:

-Sestier, Jules-Marie, (1880), LA Piraterie Dans L'Antiquite, Paris.

تُعَدُّ هذه الدّراسةُ الأولى من نوعها التي تناولت ظاهرة القرصنة في العالم القديم. تبدأُ سيستير دراستها بتتبّعِ آثارِ القرصنة منذُ عصورٍ ما قبلِ التاريخ، موضحةً أنّها نشاطٌ مرافقٌ لوجودِ الملاحَةِ البحريّة، وأنّها عادةً متأصّلةٌ في المجتمعاتِ القديمة. ثم تنتقلُ بعدَ ذلكَ للحديثِ عن حضاراتِ حوضِ البحرِ المتوسّطِ وفي مقدّمتها الفينيقيّين والإغريق، معتبرةً أنّ جميعَ شعوبِ حوضِ البحرِ المتوسّطِ قد مارستِ القرصنة في فتراتٍ من تاريخها. تحدّثت سيستير أيضاً عن نشاطِ القرصنة في أواخرِ عهدِ الجمهوريّة، وأوضحت كيفيةَ تعاملِ روما معها، وكيفَ اختفت

من البحر المتوسّط خلال عصر الامبراطوريّة الرومانيّة. تتميّز دراسة سيسنير بأنّها دراسة شاملة للقرصنة في حوض البحر المتوسّط، وخاصةً في العالم اليوناني والروماني حيث المصادر عن هذه الظاهرة وفيرة للغاية. وعلى الرّغم من أهميّة هذه الدّراسة إلا أنّها تتّسم بالاختصار وعدم التعمّق في التفاصيل.

-Ormerod, Henry, (1924), **Piracy in The Ancient World**, Liverpool.

يبدأ أورميرود كتابه بدراسة جغرافيّة لحوض البحر المتوسّط، مبيناً أثر البيئة الجغرافيّة في نشأة ظاهرة القرصنة في بعض المجتمعات. ويتّقلّ بعد ذلك لدراسة مصطلح القرصنة وتمييزه عن غيره من الأعمال الخارجة عن القانون التي وردت في المصادر القديمة. وقد فتحت هذه الدّراسة باباً أمام الدّراسات اللاحقة للقيام بأبحاث لغويّة حول القرصنة في المصادر اليونانيّة واللاتينيّة. يحاول أورميرود كذلك تتبّع نشاطات القراصنة منذ الألف الثاني قبل الميلاد، من خلال بعض الوثائق المصريّة والفينيقيّة قبل أن ينتقل لدراسة القرصنة منذ العصور الباكّة للإغريق وحتى الحروب الإغريقيّة الفارسيّة، والحروب البليونيّزيّة، وصراعات الممالك الهلنستيّة. ومن ثمّ يتحدّث عن روما وكيف تعاملت مع القراصنة خلال القرنين الثاني والأوّل قبل الميلاد، وتخلّصت من خطرهم خلال عصر الامبراطوريّة. تتّسم دراسة أورميرود بغزارة المادّة العلميّة التي قدّمتها، وبتنوع الجوانب التي تناولتها من الموضوع، وعمق التحليل، إلا أنّها في الوقت نفسه لم تولي اهتماماً كبيراً لتضخّم ظاهرة القرصنة في نهاية عصر الجمهوريّة الرومانيّة. كما أنّ الدّراسة حاولت المقارنة بين مسؤوليّة روما وبريطانيا العظمى "خلال مطلع القرن العشرين" في تأمين سلامة دول حوض البحر المتوسّط.

-Bradford, Alfred, (2007), **Flying The black Flag**, London.

يتناول الكتاب أيضاً لمحة عن تاريخ القرصنة من أيام أوديسيوس وحتى العصور الحديثة. ويستخدم المؤلف أسلوباً سلساً ومبسّطاً في تقديم صورة عامة للقرصنة وتطورها عبر العصور. وبالرغم من أن دراسته لتاريخ القرصنة في العالم اليوناني والروماني كانت دراسة مختصرة؛ إلا أنها أغنت الرسالة بالكثير من المعلومات القيمة.

- ماخوفسكي، ياتسيك، (2008)، **تاريخ القرصنة في العالم**، تر: أنور إبراهيم، القاهرة.

وهو كتاب مترجم عن اللغة الروسية، يبدأ بوصف مختصر جداً لتاريخ القرصنة في العالم القديم منذ أيام البطل الأسطوري أوديسيوس وحتى حملة بومبيوس ماغنوس. ثم ينتقل للحديث عن القراصنة الفايكينغ في العصور الوسطى متتبّعاً أثر القرصنة حتى العصور الحديثة. ويحاول ماخوفسكي في بعض الأحيان الاستفادة من المعلومات المتوفرة عن القراصنة في العصور الوسطى، لفهم طبيعة نشاط القراصنة في العالم القديم.

-Varenne, Clément, (2013), **La piraterie dans la Méditerranée antique: représentations et insertion dans les structures économiques**, Toulouse.

تناولت دراسة فارن ظاهرة القرصنة من الجانب الاقتصادي بالدرجة الأولى، باعتبارها إحدى دوائر التبادل التجاري في العالم القديم. وهي دراسة تحليلية لنموذجين من نماذج القرصنة في حوض البحر المتوسط القديم، هما كيليكية وجزر البليار. وتعد هذه الدراسة الأفضل من بين

جميع الدّراسات في تحليلها لمفهوم القرصنة، والنّظر إلى هذه الظّاهرة على أنّها عنصرٌ فعّالٌ في اقتصادٍ وحياة العالم القديم، وليس مجرد عملٍ خارجٍ عن القانون.

7-محتويات الرسالة:

تقسم هذه الرسالة إلى تمهيدٍ وثلاثة فصول، ويشكّل كلّ جزءٍ من أجزاء الدراسة قاعدةً يبنى عليه الجزء الذي يليه، بحيثُ تعملُ الأجزاء مجتمعةً على الإجابة عن تساؤلاتِ البحث، والوصول إلى النتائج المرجوة.

- التمهيد: يهدف إلى وضع ظاهرة القرصنة في الإطار السياسي الذي ستجري دراستها منه؛ أي في ظلّ الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط. ويُحاول إيجاد الرّابط بين "تضخّم ظاهرة القرصنة" والهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط.

- الفصل الأوّل المعنون بـ "القرصنة وجغرافيته حوض البحر المتوسط": يستعرض جغرافيّة حوض البحر المتوسط، مركزاً على الشواطئ والجزر وطرق الملاحة البحريّة، لما لها من علاقةٍ وطيدةٍ بوجود القراصنة ونشاطاتهم. ومن ثمّ يعمدُ إلى تحديدٍ معاقلِ القرصنة التي وجّهت روما حملاتٍ عسكريّةٍ مباشرةً ضدها، بحسب ما ذكرته المصادر الأدبيّة.

- الفصل الثاني المعنون بـ "القرصنة ونشاطات القراصنة في حوض البحر المتوسط": يتناول مفهوم القرصنة، وأشكالها، ونشاطاتها، وممارسات القراصنة المختلفة، مع دراسة القرصنة في إطار العلاقات السياسيّة بين

دول العالم القديم. ومن خلال هذا الفصل ستتوضّح العديد من العوامل التي أسهمت في تضخّم ظاهرة القرصنة.

- الفصل الثالث المعنون بـ "حملات روما العسكريّة ضدّ القرصنة": يستعرض حملات روما العسكريّة ضدّ القراصنة، في محاولة لاستكشاف الأبعاد السياسيّة لتلك الحملات. ويركّز في الغالب على روايات المصادر الأدبيّة، ومقارنتها ونقدها، لبيان صحّة ما توردّه من معلومات. وينتهي بمحاولة الإجابة عن التساؤل القائم على خمود ظاهرة القرصنة المتزامن مع اكتمال الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط كاملاً.



تمهيد:

شهدت منطقة حوض البحر المتوسط جملة من المتغيرات السياسية في أثناء بسط الهيمنة الرومانية على حوض المتوسط، التي استمرت قرابة قرنين من الزمن، بين منتصف القرن الثالث والأول قبل الميلاد. إذ انصهرت أنظمة الدول والممالك جميعها، وتحولت من هيئة القوى السياسية المتعددة، إلى هيئة القوة الواحدة في ظل الامبراطورية الرومانية.

ولا شك أن هذه المتغيرات قد أثرت تأثيراً بالغاً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسكان حوض البحر المتوسط، ولا سيما أنها كانت مدّة حافلة بالحروب والصراعات شبه المستمرة، التي زعزعت أركان الأمن والاستقرار، وأربكت حركة النشاط الاقتصادي.

وفي ظل هذه المتغيرات السياسية، وما رافقها من فوضى وغياب للأمن، واختلال في الموازين الاقتصادية؛ بدأت ظاهرة القرصنة في البحر المتوسط بالازدهار والتطور شيئاً فشيئاً، حتى أخذت تزرع الخوف والهلع في قلوب المسافرين في البحر كافة، والقاطنين على سواحه.

يجمع معظم الباحثين في تاريخ القرصنة على أن نشاط هذه الظاهرة لا يقتصر على مدّة زمنية بعينها؛ بل إنها ظهرت بالتزامن مع بداية وجود الملاحة، والتجارة

البحرية¹. وقد كان تاريخ البحر المتوسط حافلاً بقصص القرصنة الذين يثيرون الخوف والدعر على طرق التجارة، ويهددون سلامة التجار والمسافرين².

إلا أنه منذُ نحو مُنتصفِ القرنِ الثالثِ قبلَ الميلاد، أظهرت روما قلقها من تزايد خطر القرصنة، وسعت إلى كبح نشاطهم، بهدف تأمين تجارتها، ولا سيما مع شرق المتوسط. ولكن خطر القرصنة كان آخذاً بالتنامي، ولم يأت الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد حتى أصبح البحر المتوسط مكاناً يعجُّ بالقرصنة الطامعين بالأسلاب والغنائم، واستمر الوضع على هذه الحال حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل وصل إلى أن روما نفسها عانت من انقطاع واردات القمح إليها، وهنا وضعها في موقف حرج جدًّا، أجبرها على اتخاذ إجراءات جادة وسريعة؛ لقمع ظاهرة القرصنة، ووضع حدٍ جذري لها³.

إنَّ هذا التضخُّم الذي وصلت إليه ظاهرة القرصنة في تلك المرحلة، هو من دون شكٍّ ليس حدثًا فجائيًا، بل هو نتيجة لعوامل عدة تجمعت معاً في مدَّة من الزمن، حتى أوجدت تلك المشكلة⁴.

¹ Sestier, (1880), p. 4; Fish, (2017), p. 1; Ormerod, (1924), p. 13; Alfred, (2007), p. 4, 10; ص 19. (2008)، ماخوفسكي،

² Ormerod, (1924), p. 13.

³ أحمد علي، (1988)، ص 110 - 111، 56 - 57؛ نصحي، (1978)، ص 263 - 264؛ نصحي، (1973)، ص 220، 436.

⁴ يقسم تريمبولي العوامل المؤثرة في ازدهار القرصنة إلى أربعة عوامل أساسية، ويصنّفها من الأكثر تأثيراً إلى الأقل تأثيراً على الشكل الآتي: الحروب، والسياسة، والاقتصاد، وتوافر الفرص، ثم يصنّف الجغرافية على أنها العامل المؤثر في انتشار القرصنة في أماكن معينة.

Trimboli, (2016), p. 23- 26.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو "ما العوامل التي أدت إلى تضخم ظاهرة القرصنة على نحو متزايد، ومتزامن مع مدة بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، بين منتصف القرن الثالث ومنتصف القرن الأول قبل الميلاد؟".

وإذا كان ارتباط ظاهرة القرصنة بعوامل عدّة، هو أمر مسلّم فيه بطبيعة الحال، فما علاقة تضخم ظاهرة القرصنة بفترة بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط؟!

تقول سيسثير، التي تعدّ من أقدم الباحثين في تاريخ القرصنة في العالم القديم: "إنّ روما عندما دمرت قوة قرطاجة، ولم تهتم بإيجاد قوة بديلة، غير ذلك من طبيعة نشاط القرصنة"¹. ويُستشف من هذا القول أنّه بعد تدمير قوة قرطاجة، التي كانت سيّدة الحوض الغربي للبحر المتوسط، والمسؤولة عن مهمّة حفظ الأمن وحماية الملاحة والتجارة فيه، وعجز روما عن الاضطلاع بتلك المهمّة، أحدث ذلك فراغاً أمنياً، استغلّه القراصنة؛ لزيادة نشاطهم.

وعلى فرض أنّ مرحلة بسط الهيمنة الرومانية قد أوجدت حالة من الفراغ الأمني في البحر المتوسط، فهذا يعني أنّ تضخم ظاهرة القرصنة مرتبط بالدرجة الأولى بالعامل الأمني، ومتناسب عكساً معه، فكّما كان الأمن مستتباً، كان خطر القراصنة ضعيفاً، وكلّما ضعّف الأمن، ازداد بالمقابل خطر القرصنة.

¹ Sestier, (1880), p. 5.

ولبيان صحّة هذا الافتراض لا بدّ من إلقاء نظرة سريعة على حالة الأمن البحريّ قبيل بسط الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسّط، ومن ثمّ معرفة ما إذا كان التوسّع الرومانيّ قد سبّب بالفعل ذلك الفراغ الأمنيّ.

بالنظر إلى عامل الأمن البحريّ في النصف الأوّل من القرن الثالث قبل الميلاد، يظهر أنّ السيادة البحريّة كانت مقسّمة بين عددٍ من الدّول والممالك، وأنّ مسألة حفظ الأمن والنظام لم تكن تقع على عاتق واحدةٍ منها دون الأخرى، بل كانت تقع على عاتقها جميعاً، وكلّ منها تسعى إلى حماية مصالحها، وتأمين سلامة تجارتها.

ففي الحوض الغربيّ للبحر المتوسّط، كانت السيادة البحريّة بيد قرطاجة، وذلك بفضل امتلاكها لأسطول بحريّ كبير، مكّنها من حفظ الأمن وضمان سلامة تجارتها¹، فقد كانت التجارة هي المورد الاقتصاديّ الرئيسيّ لهذه الدولة².

وفي الحوض الشرقيّ كانت السيادة البحريّة موزعةً بين عددٍ من القوى، على رأسها المملكة البطلميّة، التي فرضت سيادتها ليس على مصر فحسب، بل على قوريناية في ليبيا، وجزيرة قبرص³، وعلى الشواطئ الجنوبيّة الغربيّة من آسيا الصغرى (كيليكية الغربيّة، وبامفولية، ولوكية) وبعض الجزر في بحر إيجه في وقتٍ كانت فيه

¹ عمران، (2010)، ص 82؛ Rainey, (2004), p. 73.

² مختار، (2018)، ص 82.

³ أحمد علي، (2009)، ص 264.

المملكة السلوقية تهتم بحفظ الأمن البحري في نطاق ممتلكاتها في الجزء الشمالي الشرقي من البحر المتوسط¹.

أما دول مدن اليونان، ولا سيما التجارية منها، وفي مقدمتها أثينا، ورودوس²، فقد تولت حفظ الأمن في المناطق التي كانت تحت سيادتها³، كذلك عملت مقدونيا على حماية مصالحها في منطقة بحر إيجة بوساطة قواعد في جزر الكيكلادس⁴ أيضًا.

هذا يعني إذن أن الأمن كان مستتبًا إلى حد ما في حوض البحر المتوسط قبيل بسط الهيمنة الرومانية، ومن ثم كانت حركة الملاحة والتجارة البحرية نشطة بين شرق البحر المتوسط وغربه، ولم يكن القراصنة يشكلون خطرًا كبيرًا على طرق التجارة⁵.

¹ نصحي، (1976)، ص 136، 137.

² جزيرة رودوس (Rhodes): واحدة من مجموعة جزر الدوديكانيز، البالغ عددها 13 جزيرة. تقع جنوب شرقي اليونان، ويفصلها مضيق مرمرة عن آسيا الصغرى. وهي واحد من أشهر دول مدن اليونان. انظر الخريطة رقم (1).

³ Beek, (2006), p. 26; Woolmer, (2008), p. 230; Pitassi, (2012), p. 204.

⁴ نصحي، (1976)، ص 136.

جزر الكيكلادس (Cyclades): هي مجموعة من الجزر تقع عند المدخل الجنوبي لبحر إيجة. انظر الخريطة رقم (1).

⁵ هذا لا يعني إنكار وجود القرصنة في ذلك الوقت، بل إن القرصنة لم تكن ظاهرة بالغة الخطورة على التجارة والمواصلات البحرية آنذاك. وحول نشاط القرصنة والقراصنة في البحر المتوسط في ذلك الوقت، انظر: Ormerod, (1924), p. 108-150; De Souza, (1992), p. 123- 138.

ولكن منذُ منتصفِ القرنِ الثالثِ قبلَ الميلاد، وتحديدًا بعدَ عام 241، بدأ تاريخُ حوضِ البحرِ المتوسطِ بالدخولِ في مرحلةٍ جديدة، وهي مرحلةُ الهيمنةِ الرومانيّة؛ فقد خرجت روما من الحربِ البونيّةِ الأولى¹ (264-241 ق.م) سيّدة الحوضِ الغربيِّ للبحرِ المتوسطِ بلا منازع، وأخذت تتطلّعُ إلى بسطِ نفوذها خارجَ حدودِ شبه الجزيرةِ الإيطاليّة².

وبعدَ انتصارها في الحربِ البونيّةِ الثانيةِ وتدميرِ قوّةِ قرطاجة نهائياً في معركةِ زاما عام 202 ق.م، أخذت تتطلّعُ إلى بسطِ نفوذها على الحوضِ الشرقيِّ للبحرِ المتوسط³. ولكنها لم تلجأ طيلة النصفِ الأوّلِ من القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ إلى سياسةِ الاستعمارِ، وإنشاءِ الولايات، بل اعتمدت سياسةً قائمةً على إضعافِ قوّةِ الممالكِ الهلنستيّة، والحيولةِ دونَ قيامِ دولةٍ قويّةٍ قد تقفُ عائقاً أمامَ أطماعها، أو خطراً يهدّدُ وجودها، كما فعلت قرطاجة من قبل⁴.

¹ الحروبُ البونيّة: هي سلسلةٌ من الحروبِ التي خاضتها روما ضدّ قرطاجة. انتهت الحربُ الأولى (263-241 ق.م) بانتصارِ روما على قرطاجة، وبسطِ سيادتها البحريّة على الحوضِ الغربيِّ للمتوسّط. وانتهت الحربُ الثانية (218-202 ق.م) بانتصارِ روما وتدميرِ قوّةِ قرطاجة كاملةً بعدَ معركةِ زاما أيضاً. أما الحربُ الثالثة (149-146 ق.م) فقد انتهت بتدميرِ قرطاجة إلى الأبد. حول الحروبِ البونية انظر:

نصحي، (1978)، ص 255-260، 269-288، 335-341.

² المرجع نفسه، ص 256، 261.

³ عمران، (2010)، ص 101؛ الناصري، (1982)، ص 169.

⁴ نصحي، (1978)، ص 305.

بدأت روما أولاً بمملكة مقدونيا، فقلّصت نفوذها بعد هزيمتها في الحرب المقدونية الثانية، ثمّ عمدت إلى تقسيمها في أربع جمهوريات بعد الانتصار عليها في الحرب المقدونية الثالثة¹، ونصّبت نفسها حامية لمصالح دول اليونان، وأخذت تتدخل في شؤونها الداخلية².

أمّا بالنسبة إلى المملكة السلوقية؛ فقد قلّصت روما نفوذها، وسيادتها البحريّة بعد هزيمتها في معركة مغنيزيا، وأجبرتها على توقيع معاهدة أفاميا عام 188 ق.م³. كذلك أخذت قوّة المملكة البطلمية بالتلاشي بعد معركة رفح عام 217 ق.م، وبدأت تخسر سلطتها، وسيادتها الخارجية⁴.

¹ الحروب المقدونية: هي سلسلة من الحروب التي دارت بين روما وحلفائها، وبين المملكة المقدونية، انتهت الحرب الأولى (212- 206 ق.م) بانتصار مقدونيا وعقد الصلح مع روما. وانتهت الحرب الثانية (200- 197 ق.م) بهزيمة مقدونيا في معركة رؤوس الكلاب، وأصبح بعدها فيليب ملك مقدونيا حليفاً لروما. وانتهت الحرب الثالثة (170- 168 ق.م) بهزيمة مقدونيا هزيمة ساحقة، وكان ذلك نهايتها بوصفها مملكة. عن الحروب المقدونية انظر:

نصحي، (1978)، ص 299- 311، 324- 326؛ أحمد علي، (2009)، ص 273- 276؛ الناصري، (1982)، ص 177- 181.

² أحمد علي، (2009)، ص 273- 276؛ نصحي، (1978)، ص 327.

³ حدثت معركة مغنيزيا بين روما والمملكة السلوقية (189 ق.م)، وانتهت بانتصار روما. وعلى إثر ذلك وقّعت معاهدة أفاميا، التي قلّصت فيها روما حدود المملكة السلوقية، وأضعفت قوّتها البحريّة إضعافاً كبيراً جداً. أحمد علي، (2009)، ص 279.

⁴ جرت معركة رفح بين المملكتين البطلمية والسلوقية. ومع انتصار المملكة البطلمية في هذه المعركة، إلا أنّ قوّتها أخذت بالتدهور بعد ذلك. وقد دأبت روما على تأجيج الصراع بين المملكتين؛ لضمان إضعاف قوتها. نصحي، (1976)، ص 158.

ونحو منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، وجّهت روما ضربة كبيرة لاقتصاد رودوس، فبعد أن أضعفت نفوذها، وحرمتها من أملاكها في آسيا الصغرى، حوّلت ديلوس¹ إلى ميناء مفتوح أمام التجارة الدولية، ومن ثمّ لم تعد رودوس قوة بحرية يُحسبُ حسابها كما كانت في السابق².

وفي الوقت الذي أضعفت فيه روما معظم الدّول التي كانت تتولّى حفظ الأمن وحماية طرق الملاحة، والتجارة في البحر المتوسط، كانت هي نفسها مشغولة بسلسلة من المشاكل الداخلية، والفتوحات والحروب الخارجية (الخرائط 2-3) على جبهات عدّة³، ومن ثمّ لم تستطع هي بدورها أن تشكّل البديل الأمني في البحر المتوسط.

وهكذا أصبح من الواضح أنّ سياسة روما في بسط هيمنتها على حوض البحر المتوسط، أحدثت حالة من الفوضى والفراغ الأمني، الذي شكّل بدوره بيئة خصبة لنمو ظاهرة القرصنة، وبلوغها مرحلة خطيرة في نهاية القرن الثاني والنصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد.



¹ جزيرة ديلوس (Delos): هي إحدى جزر أرخبيل كيكلاوس. انظر الخريطة رقم (1).

² عمران، (2010)، ص 101.

³ حول مشاكل روما الداخلية، والحروب الخارجية، انظر: نصحي، (1978)، ص 239-346؛ نصحي، (1973)، ص 7-424؛ أحمد علي، (2009)، ص 239-294؛ أحمد علي، (1988)، ص 7-122؛ الناصري، (1982)، ص 138-185.

الفصل الأوّل:

القرصنة، وجغرافية حوض البحر المتوسّط.

❖ أولاً: جغرافية حوض البحر المتوسّط.

❖ ثانياً: طرق الملاحة في البحر المتوسّط.

❖ ثالثاً: معاقل القرصنة في حوض البحر المتوسّط.

تمهيد

يُعدّ علمُ الجغرافية أحدَ أهمِّ العلومِ المساعدةِ لعلمِ التاريخ؛ وذلك لما يقدّمه من معلوماتٍ ووثائق، تشكّلُ عنصرًا أساسيًا في دراسةِ الوقائعِ التاريخيّة، وعاملاً بالغ الأثر في سيرِ الأحداث، لا سيّما تلكَ المتعلقةِ بالجوانبِ العسكريّة والحربيّة. ولمّا كانتِ القرصنةُ "موضوع الدراسة" ظاهرةً شديدة الارتباطِ بالجغرافية، كانَ لا بدّ من تقديم صورةٍ جغرافيّةٍ للإطارِ المكانيّ للبحث، وهذا يسمحُ بتكوينِ خلفيّةٍ وثائقيّة، تُمكنُ من تشكيلِ تصوّراتٍ لفهمِ الأحداثِ التي تؤدّي الجغرافية دورًا كبيرًا فيها.

أولاً: جغرافيّة حوض البحر المتوسط:

1- الموقعُ والامتدادُ:

يتكوّنُ البحرُ المتوسطُ من حوضين رئيسيّين، هما الحوضُ الغربيّ، والحوضُ الشرقيّ، وتُعدُّ جزيرة صقلية الحدَّ الفاصلَ بينهما¹. إذ يمتدُّ البحرُ المتوسطُ بينَ درجتَي عرض (30-60) درجةً شمالَ خطِّ الاستواء، وخطي طول (50،5) غربيّ غرينتش، و (36) شرقيّه، ويبلُغُ أقصى امتدادٍ له من مضيقِ جبلِ طارق في الغربِ إلى خليجِ اسكندرون في الشرقِ 2500 ميل (4000) كم، في حين يبلغُ متوسطُ امتداده من

¹ يعودُ تقسيمُ البحرِ المتوسطِ إلى حوضين رئيسيّين نتيجةً لوجودِ سلسلةٍ من المرتفعاتِ الجبلية تحت الماءِ على عمق 1200 قدم بينَ جزيرة صقلية والساحلِ الإفريقيّ.

الشّمال إلى الجنوب 500 ميل (320) كم¹، وتقدّر مساحته بنحو 114500 ميل² مربع.

2- سواحل حوض البحر المتوسط:

من المعروف أن البحارة قديماً كانوا يفضلون الملاحة بموازة السواحل، على الملاحة في المياه المفتوحة، وكانوا يلجؤون إلى الموانئ في الظروف الجوية القاسية، وقد كان وجود الموانئ الطبيعيّة مرتبطاً بما توفّره تضاريس السواحل³. ومن ثمّ كان من الضروريّ إلقاء نظرة سريعة على جغرافيّة سواحل حوض البحر المتوسط، لمعرفة تأثيرها في الملاحة، وفي انتشار القرصنة، ونشاطات القراصنة.

أ: السواحل الشماليّة:

تتميّز سواحل البحر المتوسط الشماليّة من حيث الخصائص الجغرافيّة عن السواحل الجنوبيّة؛ إذ تشكّل السواحل الشماليّة لمعظم البحر المتوسط سلسلة من الحواف المرتفعة، أو العميقة، وتكون السواحل متعرّجة كثيرة الرؤوس والخلجان، ومعظمها توفّر للسفن ملاجئ وموانئ طبيعيّة⁴، ولكن في بعض الأحيان، ومع وجود

¹ Boxer, B. Salah, Mostafa, (2019, August 30), **Mediterranean Sea**, Encyclopedia Britannica. www.britannica.com/place/mediterranean-sea.

² الجوهري، (1984)، ص 9.

³ Ormerod, (1924), p. 15.

⁴ Davis, (2009), p. 18.

الرؤوس والخلجان، يمنع الامتداد الصخري للساحل السفن من الرسو، إمّا بسبب المياه الضحلة غير المناسبة للرسو، وإمّا لأنها مكشوفة في مواجهة الرياح القويّة¹.

وتمتدّ السلاسل الجبلية على طول السواحل، وهي إمّا أن تكون منحدرّة على الساحل مباشرة، وإمّا أنها تكون مفصولة عنه بسهول ساحلية، وتتمثل تلك الجبال بسلاسل (البيرينيز) الشرقية، وسلسلة (الألب البحريّة)، وسلسلة (الأبنين) في إيطاليا وصقلية².

وبالنظر إلى سواحل البحر الأدرياتيكي، يظهر الاختلاف واضحاً بين السواحل الغربيّة والسواحل الشرقية؛ إذ يمتدّ الساحل الغربي امتداداً مستقيماً ومتواصلاً نسبياً، ويكاد يخلو من الجزر والممرات المائية، على عكس الساحل الشرقي الذي تكثر فيه الجزر، والرؤوس، والخلجان، والممرات المائية³.

أمّا سواحل بلاد اليونان وبحر إيجه، فهي سواحل معقدة من حيث التضاريس، تتخللها الرؤوس والخلجان، والألسنة البحريّة، وتقابلها أعداد كبيرة جدّاً من الجزر (الخريطة رقم 1)، وتمتدّ السلاسل الجبلية والمرتفعات بموازاة السواحل، بدءاً من سلسلة جبال (الألب الديناييّة) بموازاة الساحل الغربي للبحر الأدرياتيكي، إلى مرتفعات شبه جزيرة البلقان، وهي سلاسل يتراوح ارتفاعها بين 500 - 2000 م⁴.

¹ Arnaud, (2005), p. 29.

² Davis, (2009), p. 18.

³ Britannica, T. Editors of Encyclopedia, (2016, August 19), **Adriatic Sea**, Encyclopedia Britannica. www.britannica.com/place/Adriatic-sea.

⁴ Davis, (2009), p. 18.

وتبدو السواحل الجنوبيّة لآسيا الصغرى أقلّ تعقيداً من سواحلها الغربيّة (الإيجيّة) من حيث التضاريس؛ فمع أنّها سواحلّ متعرجة، إلا أنّها قليلة الرؤوس والخلجان، والألسنة المائيّة، وتنعدم الجزر قبالتها، تليها سلاسل جبليّة عالية، تتمثّل بسلاسل جبال طوروس، التي تتحدّر مباشرة وبشدّة نحو البحر على امتداد السواحل كاملة تقريباً (الخريطة رقم 4).

ب: السواحل الجنوبيّة:

أمّا السواحل الجنوبيّة الغربيّة فقد أطلق عليها الإغريق كلمة "ليبيا"؛ وذلك لوصف الأرض الواقعة شمال الصحراء، واسم للقارة كلّها أيضاً، في حين استخدم الرومان تسمية "أفريقيا"؛ لوصف تلك الأراضي، ومن ثمّ القارة كلّها¹.

وتتكوّن هذه السواحل (الخريطة رقم 4) من سلسلة متصلة من الشواطئ العالية، تمتدّ من رأس مونت أبيلا عند المضيق "مقابل جبل طارق" في الغرب، حتى تونس في الشرق، بمسافة تقدّر بنحو 1500 كم، تتخللها الرؤوس، والخلجان الرميّة الضحلة، وبعض الجزر، وتمتدّ على بُعد كيلومترات عدّة من الساحل حواجز من السلاسل الجبليّة، تتمثّل بجبال (الريف) التي تمتدّ من مضيق جبل طارق حتى رأس (تريس فوركاس)، وإلى الشرق منها تمتدّ سلسلة جبال (الأطلس)، وهي سلسلة جبليّة عالية، تأخذ في الانحدار باتجاه الشرق حتى (رأس بون)².

¹ Warmington, B. H. Abun-Nasr, (2016, April 20), **North Africa**, Encyclopedia Britannica. www.britannica.com/place/North-Africa

² Davis, (2009), p.19.

أما السواحل الجنوبية (الخريطة رقم 2) الممتدة من دلتا النيل شرقاً حتى رأس بون غرباً (مصر، ليبيا، تونس) فتتصف بأنها رملية ومستقيمة، وتمتاز بسهولة الملاحة قبالتها لانعدام التضاريس المعقدة، ولكن بالمقابل، وعلى مسافة 2500 كم من دلتا النيل في الشرق تنعدم الموانئ، وتكون الشواطئ عالية عن سطح البحر ما بين (3-10 م)، وهذا يجعل البر غير مكشوف حتى على مسافة قريبة في البحر، والملاحة أكثر خطورة، وهذا ما دفع إلى بناء العديد من الأبراج على طول الساحل منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وتوج ذلك ببناء منارة الاسكندرية نحو بداية القرن الثالث قبل الميلاد، بغرض هداية السفن في تلك السواحل الفقيرة بالميزات الجغرافية¹.

3- جزر البحر المتوسط:

تشكل الجزر أهمية كبيرة للملاحين، والمسافرين عن طريق البحر؛ إذ إنها تعمل محطات استراحة للمسافرين، سواء من جزيرة إلى أخرى، أم بين السواحل، وهذا يُقسّم المسافات الطويلة، ويخفف عناء السفر، فضلاً عن أنها تُشكل نقاطاً علاماً لمعرفة الطرق الملاحية معرفة صحيحة².

وفي الوقت نفسه الذي كانت فيه الجزر مفيدة للملاحين والتجار، كانت مفيدة للقراصنة الطامعين في نهب وسرقة السفن أيضاً؛ فمن ناحية كانت تشكل أوكاراً للقراصنة، ومن ناحية ثانية كانت تشكل مخابئ تتوارى خلفها سفن القراصنة³، ولا سيما

¹ Davis, (2009), p.19.

² Ibid., p.19- 21.

³ ماخوفسكي، (2008)، ص 24.

أنّ كثيرًا من الجزر كانت قريبة جدًا من بعضها، وتشكّل ممرّات مائيّة تحتّم على السفن المرور بها (الخريطة رقم 5).

تُظهر (الخريطة رقم 1) مواقع أهمّ الجزر في البحر المتوسّط، ويُلاحظ بوساطتها تفاوت تلك الجزر في أحجامها، واختلاف أشكالها عن بعضها بعضًا، ويُلاحظ أنّ معظم الجزر ولا سيما الصغيرة منها، تقع قبالة السواحل الشماليّة للبحر المتوسّط، وكثيرًا ما تشكّل مع الدّاخل القاريّ، وأحيانًا فيما بينها، مضائق وممرّات مائيّة، تصل بين أجزاء البحر المتوسّط.

ثانياً: طرق الملاحة في البحر المتوسط:

فرضت طبيعة بلدان البحر المتوسط عليها أن تكون صلاتها عن طريق البحر، فمن ناحية جعلت السلاسل الجبلية العالية الطرق البرية صعبة العبور وخطرة، ومن ناحية ثانية كانت الطرق النهرية محدودة جداً، وبالمقابل كانت السواحل ملائمة أكثر من حيث وفرة الموانئ، والرؤوس، والخلجان، وما يقابلها من الجزر التي شكّلت محطات وملاذاً للسفن، وعلى الأخص السفن الصغيرة، وكان على من يود الإبحار أن يتبع الطرق الملاحية المناسبة، بحيث يسير بموازاة السواحل، ويجعلها على مرمى نظره، ويشق طريقه بين الجزر، ويجتاز الممرات المعروفة، وكثيراً ما كانت تضطره الرياح المعاكسة إلى الانتظار حتى الليل؛ للإبحار، وهكذا كانت التجارة عادة تمر من طرق محددة¹.

ومع الميزات التي تتمتع بها الملاحة بموازاة الساحل من حيث توفر نقاط علام، أو ملاجئ، أو نقاط تزويد للسفن، إلا أنها في الوقت نفسه تشكّل خطراً كبيراً على السفن عندما تكون الرياح قوية جداً، وهذا يجعل الملاحة المفتوحة أكثر أمناً، ويدل على ذلك وجود حطام السفن أمام السواحل أكثر منه في أعالي البحار².

وكما يقال: إنّ الطرق (البرية) جميعها تؤدي إلى روما، كذلك فإن الطرق البحرية جميعها كانت تؤدي إلى روما، بوصفها القوة الكبرى بين دول حوض البحر

¹ Ormerod, (1924), p. 15- 16.

² Arnaud, (2005), p. 29.

المتوسط آنذاك، وبوساطة تتبّع (الخرائط 5، 8 - 12)، يمكن تحديد الطرق الملاحية الآتية:

1- الطرق الملاحية بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط:

بالنّظر إلى (الخريطة رقم 5)، يمكن تحديد ثلاثة طرق رئيسية من شرق البحر المتوسط إلى غربيه، وهذه الطرق هي:

أ- الطريق الملاحى الشمالي:

يعدّ الطريق الشمالي من أفضل الطرق البحرية التي تربط الموانئ الشرقية للبحر المتوسط بموانئ بحر إيجه، والموانئ جميعها التي تقع إلى الغرب منه، وكان يعدّ أكثر الممرات البحرية نشاطاً بحركة السفن والملاحة قديماً؛ إذ كان يُستفاد من حركة الرياح، ومن طبيعة السواحل الشماليّة¹.

ومن الموانئ الشرقية كان الطريق يتوجّه غرباً ليمرّ من جنوبي جزيرة قبرص، جاعلاً من الجزيرة نقطة علام، ثمّ ينعطف باتجاه الشمال الغربيّ مع التيار، حتّى يصل إلى الشاطئ الجنوبيّ للأناضول، الذي يشكّل مأوى من الرياح الخطيرة، وقد اعتادت السفن الاستفادة من الرياح القادمة من جهة البرّ، لاجتياز الممرّ الصعب نحو الغرب على طول سواحل كيليكية، وبامفولية، ولوكية، حتّى يبلغ مدخل بحر إيجه (الخرائط رقم 8 - 9).

¹ Davis, (2009), p.79.

ومن الممرّ البحريّ بين جزيرة رودوس، وشاطئ آسيا الصغرى الجنوبيّ، يسيّر الطريق بين مجموعة من جزر بحر إيجة حتّى جزيرة كريت، ويمرّ بمحاذاة الجزيرة من جهة الغرب، حيث يُستفاد من الرياح القادمة من جهة الجزيرة، كما هي الحال في الشاطئ الجنوبيّ لآسيا الصغرى، وبعد تجاوز جزيرة كريت، إمّا أن يتجه الطريق شمالاً على طول الساحل الغربيّ للبليبونيز، مع الرياح المعاكسة، حتّى بلوغ مضيق أوترانتو بين جزيرة كوركيرا ورأس يابيجيا في الغرب، ليصل ميناء برونديزيوم¹، قاطعاً مسافة تقدّر بنحو 60 ميلاً بحريّاً على الأقل، وإمّا أن يتجه الطريق نحو الغرب، مخترباً البحر الأيونيّ الواسع بمسافة تقدّر بنحو 400 ميل بحريّ، وهو طريق ملاحية مفتوح عن طريق البحر، قد يستغرق أسابيع عدّة من الملاحية الصعبة بعكس الرياح والتيارات، ومن ثمّ عبور مضيق مسينا حتّى الوصول إلى الموانئ الإيطالية (الخرائط رقم 6 - 11).

ب- الطريق الملاحيّ المتوسط:

يعدّ هذا الطريق هو الأقصر، إذ يخترق البحر بمسار ملاحية مفتوح، ويمرّ عن طريق الجزر: قبرص، وكريت، ومالطة، وصقلية ثم سردينية، ويستمرّ غرباً حتّى جزر البليار، ويعدّ هذا الطريق أكثر أمناً من طرق الملاحية الساحليّة؛ إذ تكون الفسحة المائيّة واسعة، وتوفّر الحماية من المطاردات والأشرار².

¹ ميناء برونديزيوم (Brondesium): أشهر الموانئ على الساحل الشرقي لإيطاليا، وهو الميناء الوحيد لروما على الأدرياتيكي.

² Braudel, (2001), p. 220.

ويظهر أن هذا الطريق الملاحي يتفرع عند السواحل الغربية من صقلية، فيأخذ فرعاً منه الاتجاه الشمالي الشرقي نحو ميناء برونديزيوم، وفرعاً آخر يعبر مضيق مسينا نحو البحر التيراني؛ ليصل إلى موانئ إيطاليا الغربية (الخريطة رقم 10).

ج- الطريق الملاحي الجنوبي:

يمتد هذا الطريق البحري بموازية الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، ويمر من أمام الشواطئ المصرية وموانئها، إلى أن يصل إلى خليج سرت والموانئ الليبية، بعدها يتجاوز مضيق صقلية؛ ليتفرع إما شمالاً بين جزيرتي صقلية وسردينيا نحو البحر التيراني وموانئ إيطاليا، وإما أن يعبر من غرب سردينيا نحو سواحل الغال وحوض البليار، وإما أن يستمر بمساره نحو الغرب بمحاذاة الساحل الجنوبي للبحر المتوسط (الخريطة رقم 5).

2- الطرق الملاحية بين إيطاليا والحوض الغربي للبحر المتوسط:

بالنظر (للخريطة رقم 5)، يمكن تحديد طرق الملاحة الآتية بين سواحل إيطاليا الغربية، وغيرها من سواحل الحوض الغربي للمتوسط.

أ- الطريق الملاحي من شواطئ إسبانيا:

إن الطرق البحرية القادمة من موانئ إسبانيا كانت تتبع أكثر من مسارٍ ملاحٍ؛ للوصول إلى الموانئ الإيطالية؛ فإما أن تأخذ المسار الملاحي الساحلي على

طول الساحل الشمالي للبحر المتوسط حتّى البحر الليغوري¹، ثم تتعطف جنوباً عن طريق مضيق توسكان إلى البحر التيراني وموانئ إيطاليا، أو أنّها تسير من جنوبيّ جزر البليار عن طريق البحر المفتوح وتمرّ من مضيق بونيفاكيو² إلى البحر التيراني، والموانئ الإيطالية، أو أنّها بدلاً من ذلك تمرّ من جنوب سردينيا مستفيدةً من حركة الرياح عبر ممرّ صقلية³ شمالاً إلى الموانئ الإيطالية (الخرائط رقم 5، 7).

ب- الطريق الملاحيّ من شواطئ بلاد الغال:

كذلك هي الحال بالنسبة إلى المسار الملاحيّ من شواطئ غاليا، حيث يسير الطريق بمحاذاة الشواطئ الشماليّة "ساحل ليغوريا"، ثمّ يدخل البحر التيرانيّ عن طريق مضيق توسكان⁴ إلى الموانئ الإيطاليّة، أو أنّه يتجه مباشرةً نحو الجنوب الشرقيّ في المياه المفتوحة ليعبر مضيق بونيفاكيو إلى البحر التيرانيّ، وموانئ إيطاليا، وقد تستغرق هذه الرحلة نحو ثلاثة أيام في حال كانت الرياح مواتية.

¹ البحر الليغوري: هو الجزء الشماليّ الشرقيّ من البحر التيرانيّ، قبالة شواطئ ليغوريا.

² مضيق بونيفاكيو: هو المضيق البحريّ بين جزيرتي سردينيا وكورسيكا.

³ ممرّ صقلية: هو الممرّ البحريّ الذي يفصل جزيرة صقلية عن البرّ الأفريقيّ.

⁴ مضيق توسكان: هو المضيق البحريّ بين جزيرة سردينيا والبرّ الإيطاليّ.

ج- الطريق الملاحى من شواطئ شمال إفريقيا:

يأتي الطريق البحري بين شمال إفريقيا "قرطاجنة" وإيطاليا، هذا المسار الذي يمر عن طريق قناة صقلية، إما أن يسير بمحاذاة جزيرة صقلية وأوستيكا¹، وإما بمحاذاة الساحل الشرقي لسردينية، وبعدها مباشرة إلى موانئ إيطاليا².

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ السفن التي كانت تمر من هذا الطريق شمالاً، تتعرض إلى صعوبات في الملاحة، ولا سيما عندما تكون التيارات البحرية من جهة الغرب، وهذا ينتهي بالسفن في كثير من الأحيان في أرخبيل مالطا³.

ثالثاً: معاقل القرصنة في حوض البحر المتوسط:

ستظهر دراسة معاقل القرصنة في البحر المتوسط مدى ارتباط ظاهرة القرصنة بالعامل الجغرافي، بشقيه: الطبيعي، المرتبط بالبيئة والتضاريس، والاقتصادي، المرتبط بالموارد والتجارة.

يؤكد أحد الباحثين بعد دراسته عوامل نشوء القرصنة، أنّ العامل الجغرافي هو أكثر العوامل المؤثرة في وجود القرصنة وازدهارها في أماكن معينة⁴. في حين يرى غيره أنّه حيثما كانت توجد طرق التجارة، كانت توجد القرصنة كذلك، فهدف القرصنة كان السفن، والسفن توجد في الموانئ وعلى طول طرق الملاحة البحرية⁵.

¹ أوستيكا (Ostica): جزيرة بركانية صغيرة، تقع إلى الشمال الغربي من صقلية.

² Davis, (2009), p.84.

³ Atauz, (2004), p.46.

⁴ Trimboli, (2016), p. 23- 26.

⁵ Fish, (2017), p. 10- 11.

وهكذا فإنَّ تحديدَ معاقلِ القرصنة في المناطق التي سيأتي ذكرها، لا يعني أبداً أنَّها تقتصرُ على تلك المناطق فقط؛ ولكن اختيرت بالتحديد؛ لأنها تُعدُّ أكبرَ معاقلِ القرصنة في البحر المتوسط، وأكثرها شهرةً، ولا سيما في أثناء بسطِ الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط بين مُنتصفِ القرنِ الثالثِ والأوَّلِ قبلَ الميلاد، وهي أهمُّ المعاقلِ التي شنَّ الرومانُ حملاتٍ عسكريَّةٍ عديدةٍ ضدها، وكان لها تأثيرٌ في الأحداثِ السياسيَّةِ في تلك المدَّة.

1- كيليكية:

تقعُ كيليكية في الجهة الجنوبيَّة من آسيا الصَّغرى، يحدها من جهة الشمالِ كبادوكية وليكانيَّة، ومن جهة الغربِ بيسيدية وبامفولية، وتحدها سورية (المملكة السلوقية) من جهة الشرق، في حين يمثِّلُ ساحلُ البحرِ المتوسِّطِ الشماليِّ حدودها الطبيعيَّة من جهة الجنوب (الخريطة رقم 13).

تشتملُ كيليكية على منطقتين جغرافيتين متباينتين من حيث الخصائص الطبيعيَّة؛ تُسمَّى الأولى كيليكية بيدياس (Cilicia pedias)، وتقعُ هذه المنطقة في سهلٍ خصيبٍ تحيطُ به الجبالُ على شكلِ حذوة حصان، وتسقيها ثلاثة أنهارٍ كبيرةٍ، وهذا يجعلها منطقةً غنيَّةً زراعيًّا بأنواعِ الحبوبِ جميعها. أمَّا المنطقةُ الثانيةُ فتُسمَّى كيليكية تراخيا (Cilicia Tarachia) أو كيليكية الوعرَّة (Rough Cilicia)، وهي كتلةٌ متشابهةٌ من الجبالِ الصخريَّةِ الوعرَّة التي تتحدَّرُ بشدَّةٍ نحوَ البحر،¹ وهذه المنطقةُ

¹ Jones, (1971), p. 191.

بالتحديد؛ أي كيليكية تراخيا، هي المعروفة أنها أكثر معاقل القرصنة شهرة في حوض البحر المتوسط.

تتكوّن منطقة كيليكية تراخيا إذن من المنحدرات الجنوبية لسلسلة جبال طوروس، حيث تقترب الجبال من الساحل، وتمتد تلك السلسلة الجبلية من جبال الأمانوس شرقاً، حتى البحر الإيجي غرباً، بما فيها جبال لوكية وكارية مع امتدادها في مجموعة جزر سبوراديس قبالة الشاطئ الغربي¹. ويشير دي سوزا بهذا الصدد إلى أنّ تسمية "القرصنة الكيليكيتين" التي تذكرها المصادر القديمة لا تشمل فقط قرصنة كيليكية فحسب، بل تشمل قرصنة لوكية وبامفولية أيضاً².

ويبدو أنّ ما أشار إليه دي سوزا صحيحاً بالنظر إلى وحدة الطبيعة الجغرافية لكامل الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى "كيليكية، وبامفولية، ولوكية، حتى كارية" (الخريطة رقم 13). ذلك أنّ تلك المساحة بأكملها تقريباً هي منطقة جبلية صخرية وقاحلة، ولا تسمح بوجود بيئة زراعية واسعة، وفي الوقت نفسه تشكّل للسكان ملاجئ دفاعية كثيرة³، وهذا ما دفع السكان إلى العمل في اللصوصية؛ فمن مواقعهم الثابتة في الجبال كانوا يهاجمون جيرانهم في السهول من دون خوف من الانتقام، وإنّ الجبال المغطاة بأشجار البلوط والزان والعرعر والصنوبريات وفّرت لهم الأخشاب اللازمة، لبناء السفن، ومن ثمّ ممارسة اللصوصية في البحر؛ أي القرصنة.

¹ Ormerod, (1924), p. 190.

² De Souza, (1992), p. 254.

³ Trimboli, (2016), p. 27.

فضلاً عن ذلك، تتميز سواحل هذه المنطقة أنها صخرية شديدة الانحدار نحو البحر، وتشكل الرؤوس المنحدرة مخبأ وملجأ للرجال الذين يعرفون الشاطئ جيداً، وعلى هذه الرؤوس البحرية الوعرة والصخور المنحدرة، أقام القراصنة تحصينات متينة، ونقاط مراقبة يمكن بواسطتها رؤية أية سفينة تقترب من الساحل¹، ولا سيما أن تلك المنطقة قريبة جداً من طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب (الخريطة رقم 5).

وربما يعود السبب في شهرة " القراصنة الكيليكيين " دون غيرهم من قراصنة الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى إلى أنهم كانوا الأكثر قوة ونفوذاً، وظهوراً على مسرح الأحداث السياسية في المنطقة.

2- جزيرة كريت:

تقع جزيرة كريت في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وتمتد إلى الجنوب الشرقي من شبه جزيرة البليونيز، وتعد الحد الشرقي لبحر إيجة من جهة الجنوب، وهي تتحكم بأهم الممرات المائية وتشرف على طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب (الخرائط 1، 5، 10).

ويتكوّن ثلثا مساحة الجزيرة من بيئة صخرية جبلية وقاحلة، تتميز بوجود المئات من الملاجئ الصخرية والكهوف، وينحدر الساحل الشمالي من الجزيرة تدريجياً، موفرًا العديد من الموانئ الطبيعية².

¹ Ormerod, (1924), p. 192- 193, 198.

² Willetts. (1977). p. 26.

اشتهر سكان كريت منذ القديم بالعمل مرتزقة لدى غيرهم من الشعوب، فضلاً عن شهرتهم الكبيرة في ممارسة القرصنة، حتى إن كريت كانت تُدعى بموطن القرصنة¹، وبحسب وصف بلوتارخ كانت ثاني أهم معقل من معقل القرصنة في البحر المتوسط بعد كيليكية².

وربما يعود السبب في ممارسة الكريتيين لمهنة القرصنة، إلى شح الموارد الاقتصادية في الجزيرة، بسبب طبيعتها الجبلية الصخرية القاحلة من ناحية، وتوفر الظروف الملائمة لنمو القرصنة من ناحية ثانية؛ إذ تكثر في الجزيرة الملاجئ والكهوف، في حين تُشكل السواحل الصخرية المتعرجة مخابئ مثالية للسفن، هذا فضلاً عن أن طرق التجارة البحرية كانت تمرّ بالقرب من الجزيرة مباشرة (الخرائط رقم 5، 10).

3- إلورية:

هي المنطقة التي تحتل الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي والجزر المقابلة له³. ويقول المؤرخ أبيان: إن الإغريق أطلقوا تسمية إلورية على كامل المنطقة الممتدة ما وراء مقدونيا وتراقيا وحتى الدانوب شمالاً⁴. وتتألف تلك الأراضي الواسعة من ثلاث مناطق متميزة جغرافياً بعضها عن بعض؛ المنطقة الأولى هي الشريط الساحلي الضيق، والمنطقة الثانية هي سلسلة جبال الألب الدينازية، التي تشكّل حاجزاً يفصل

¹ Beek, (2015), p. 26, 140.

² Plutarch, Pompey, 29, 1.

³ Willoughby, (2018), p. 5.

⁴ Appian, X, I, 1,2.

الشريط الساحلي عن الداخل القاري، أما المنطقة الثالثة فهي سهول بانونيا الممتدة في عمق الداخل الأوربي¹.

وقد اشتهر سكان اللورية بممارسة اللصوصية والقرصنة منذ القديم، وعلى نطاق واسع². ومن بين أشهر القبائل التي مارست اللصوصية والقرصنة كانت قبيلة الليبورنيين (Liburini) التي مارس أفرادها القرصنة في البحر الأدرياتيكي، وجزره بمراكبهم الصغيرة الخفيفة، والسريعة³.

ويبدو أن الطبيعة الجغرافية لمنطقة اللورية كانت هي العامل الأكبر في دفع السكان لممارسة القرصنة؛ فالشريط الساحلي الضيق، وسلسلة الجبال العالية التي تفصلها عن الداخل وعن سهول بانونيا، لا تسمح بتوفير موارد اقتصادية كافية، وبالمقابل كان يمكن للبحر أن يشكل بديلاً مثالياً لتلك الموارد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت الطبيعة الجغرافية ملائمة لنمو القرصنة وازدهارها؛ فالجبال يمكن أن تشكل مصدراً للأخشاب اللازمة لبناء السفن، ومخبأً للصوف والقرصنة، وإن السواحل متعرجة كثيرة الرؤوس والخلجان والألسنة البحرية والجزر، وهذا يشكل مخابئ كافية لسفن القرصنة، وفي الوقت نفسه كانت طرق التجارة، والممرات البحرية قريبة بما فيه الكفاية؛ لتكون عرضة لغارت القرصنة وهجماتهم (الخرائط رقم 1، 14).

¹ Dzino, (2005), p. 43- 44.

² Trimboli, (2016), p. 27.

³ Appian, X, I, 3.

4- ليغوريا:

تقع ليغوريا في الجهة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الإيطالية، وتطل على الساحل الشمالي للبحر التيراني (فيما يُعرف ببحر ليغوريا)، في حين تحيط بها بلاد الغال من جهة الشرق والشمال والغرب، وتحترقها سلسلة جبال الألب البحرية من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، مشكّلة شريطاً ساحلياً صخرياً وضيقاً (الخرائط رقم 4، 15).

وتتّصف ليغوريا أنّها منطقة وعرة وفقيرة وصعبة الاتصال فيما بينها، ولطالما اشتهر سكّانها بممارسة القرصنة، أو العمل بوصفهم جنوداً مرتزقة لدى غيرهم من الشعوب، وعُرفوا أنّهم بحارة محترفون.

وقد كانت طرق التجارة البحرية النشطة بين شرقي البحر المتوسط وغربه تمرّ بالقرب من سواحل ليغوريا، وتحديدًا ذلك الممرّ البحريّ بينها وبين جزيرة كورسيكا، حيث تتّجه السفن من موانئ إسبانيا وبلاد الغال إليها، وهذا شكّل فرصة مناسبة أمام القراصنة لمهاجمة السفن، إذ أنّهم كانوا يهدّدون طرق التجارة في الغرب حتّى مضيق جبل طارق¹.

ويبدو أنّ الموقع والبيئة الجغرافية لمنطقة ليغوريا كانت الدافع الأساسي للسكّان لممارسة القرصنة، كما هي الحال تمامًا في كلّ من كيليكية واللورية؛ فالأراضي القاحلة لم تسمح بتوفير ما يلزم من الموارد الاقتصادية، والجبال العالية شكّلت عائقاً عن

¹ Ormerod, (1924), p. 163, 164.

التوجّه نحو الداخل؛ للبحث عن بديل لتلك الموارد، في حين كان البحر يشكّل البديل الأنسب، هذا فضلاً عن أنّ الجبال يمكنها أن توفّر ما يلزم من الأخشاب؛ لبناء السفن، والسواحل المتعرجة تؤمّن بدورها الموانئ والمخابئ لسفن القراصنة (الخريطة رقم 4).

5- أرخبيل البليار:

تقع جزر البليار في الحوض الغربي للبحر المتوسط (في الجزء الذي يُسمّى بحوض البليار)¹ وتعدّ جزر (مايوركا، ومينوركا، وفورمينترا، وإيبيزا)، أهم وأكبر جزر الأرخبيل²؛ إذ تشغل جزيرة مايوركا وحدها نحو 75 % من المساحة الإجمالية.

وتتّصف هذه الجزر عمومًا أنّها ذات طبيعة سهلية مسطحة، ولا سيما جزر مينوركا وفورمينترا، في حين توجد بعض المنحدرات الجبلية في كلٍ من مايوركا وإيبيزا قد يصل ارتفاع بعضها إلى نحو (1000 م) عن سطح البحر، تنمو فيها الأشجار مشكّلة بعض الغابات.

تتميّز السواحل الجنوبية لتلك الجزر أنّها صخرية، وتكوّن منحدرات، وحوافٍ جبليّة، إذ تتحدّر نحو البحر،³ ويصفّ استرابو جزيرتي ميوركا ومينوركا أنّهما جزيرتان خصبتان وغنيتان بالموانئ والصخور الناتئة في المياه⁴.

¹ Boxer, B. Salah, Mostafa. (2019, August 30). **Mediterranean Sea**. Encyclopedia

Britannica. www.britannica.com/place/mediterranean-sea

² Rodrigues, V. (2019, February 27). **Balearic Islands**. Encyclopedia Britannica.

www.britannica.com/place/Balearic-Islands

³ Vogiatzakis, et al, (2008), p. 273- 275.

⁴ Strabo, III, V, 1.

وبحسب رواية فلوروس، كان سكّان جزر البليار يمارسون القرصنة في البحار، ومن مواقعهم على الصخور العالية كانوا يراقبون السفن المارة بالجوار؛ لينقضوا عليها انقضاضاً مفاجئاً¹. أمّا استرابو، فيميل إلى الاعتقاد أنّ السكّان كانوا مسالمين، ويعزو سبب ذلك إلى خصوبة الجزر، وأنّ الظروف أجبرت بعضهم على مساعدة القراصنة في البحار².

ويتفق بعضهم مع رواية استرابو أنّ سكّان البليار لم يكونوا معروفين بالقرصنة في تاريخهم، بل عُرف عنهم أنهم أناسٌ مسالمون، ولكنّ بعضهم كان على صلةٍ بالقراصنة الذين يجوبون تلك البحار³. في حين يعزو بعضهم الآخر ميل بعض السكّان إلى ممارسة القرصنة إلى حالة الفقر التي يعيشون بها⁴.

وسواءً أكان بعض السكّان هم أنفسهم من القراصنة، أم أنّهم تعاونوا مع القراصنة ووفّروا لهم بعض المعامل على السواحل، وسواءً أكانوا مدفوعين إلى ذلك طمعاً في الغنائم، أم خوفاً على أنفسهم من شرور القراصنة، فهذا لا يغيّر حقيقة أنّ الأرخبيل بأكمله كان مكاناً يعجّ بالقراصنة الطامعين بطرق التجارة المارة بقرب تلك الجزر.

6- أرخبيل مالطا:

تقع جزر مالطا في منتصف البحر المتوسط تقريباً، إلى الجهة الجنوبية الشرقية من جزيرة صقلية، وهي فضلاً عن موقعها المتوسط، تقع في الممر الضيق الذي

¹ Florus, I, XLIII, 8.

² Strabo, III, V, 1.

³ Ormerod, (1924), p. 166.

⁴ Bradford, (2007), p. 185.

يفصلُ الحوضَ الشرقيّ للبحرِ المتوسط عن الحوضِ الغربيّ، وهذا الموقعُ الجغرافيُّ المُميّزُ على طرقِ التجارة جعلَ لهذهِ الجزرِ أهميةً استراتيجيةً كبيرةً معَ صغرِ حجمها (الخرائط رقم 1، 5).

ولم تكن سوى جزيرتي مالطا وغوزو كبيرتين بما يكفي للسكن فيهما، وكانت البيئةُ الجغرافيةُ في الجهةِ الشماليّة والغربيّة من مالطا غيرَ صالحةٍ للزراعة وتربية الحيوان، باستثناء بعضِ الوديانِ في غربِ الجزيرة¹، وهذا يعني أنّ الجزيرة كانت فقيرةً بالموارد الزراعية.

وقد أدّت الظروفُ الجويّةُ دورًا لا بأس به في جعلِ الجزيرة معقلًا ملائمًا للقراصنة؛ ذلك أنّه كثيرًا ما كانت السفنُ التي تبحرُ ضدّ التيار على طولِ الساحلِ الغربيّ لصقلية، ينتهي بها المطافُ في مالطا بفعلِ الرياحِ الشماليّة والشماليّة الغربيّة²، ومن ثمّ تقعُ في شراكِ القراصنة الذين يترصدونها.

ولا شكّ بأنّ الظروفَ الاقتصادية بدورها شجّعتِ السكانَ على مدِّ يدِ العونِ للقراصنة والتحالفِ معهم، فشكّلَ القراصنةُ صلةَ الوصلِ بينَ الجزيرة وصقلية³، ومن المحتمل أن بعضَ السكانِ أصبحوا منَ القراصنة أيضًا، وصارت علاقتهم بالقراصنة مبنية على تبادلِ النفع، وهذا أسهمَ في إنعاشِ اقتصادِ الجزيرة؛ فتحوّلت إلى سوقٍ

¹ Atauz, (2004), p. 1,7.

² Ibid., p. 46.

³ Trimboli, (2016), p. 75.

للبضائع المسروقة والعبيد، ونشطت فيها الموانئ، وخدمات إصلاح السفن وصيانتها، وبالمقابل وجدَ القرصنة في الجزيرة معاقلاً ومخابئ لقضاء الشتاء¹.

وأدى تحالف السكّان مع القرصنة إلى حماية ممتلكاتهم وجزيرتهم من القرصنة، حتى إنّ القرصنة أنفسهم أصبحوا يحمون الجزيرة²، ولا أدلّ على ذلك من احترامهم لمقدّسات السكّان، كمعبد **جونو**³ في الجزيرة الذي لم يتعرض إلى النهب من القرصنة⁴.

وهكذا بعد فهم الطبيعة الجغرافية العامة لحوض البحر المتوسط، وتحديد أبرز معاقل القرصنة، يمكن استخلاص النقاط المشتركة الآتية بين تلك المعاقل:

- 1- القرب من طرق الملاحة البحرية النشطة بالحركة التجارية.
- 2- الطبيعة الجغرافية الوعرة، والجبلية، التي تكثر فيها المخابئ والملاجئ الصخرية.
- 3- السواحل الصخرية المنحدرة، التي تكثر فيها الرؤوس والخلجان، والملاجئ البحرية.
- 4- وجود عدد كبير من الجزر، والكتل الصخرية الصغيرة، التي تشكّل مخابئ لسفن القرصنة.

¹ Ormerod, (1924), p. 71.

² Trimboli, (2016), p. 75.

³ **جونو (Juno)**: تعدّ جونو الربّة الأم في روما، وهي قرينة جوبيتر كبير الآلهة، التي تشكّل برفقته ورفقة الربّة مينيرفا الثلاث المقدّس للكاينبولين في روما. تقابلها الربّة هيرا عند الإغريق.

<https://www.Britannica.com/topic/Juno-Roman-Goddess>

⁴ De Souza, (1992), p. 78.

5- حركة الرياح والتيارات البحرية التي تجبر السفن على اتباع طرق معينة في

بعض الأحيان، وهذا يجعلها تقع في شرك القرصنة.

6- فقر البيئة الجغرافية الزراعية، وقلة الموارد الاقتصادية البديلة، دفعت السكان

إلى ممارسة اللصوصية، والقرصنة، بوصفها مصدراً أساسياً للرزق.

ولكن بالعودة إلى السؤال الذي طرح سابقاً؛ وهو: "ما العوامل التي أدت إلى تضخم

ظاهرة القرصنة على نحو متزايد، ومتزامن مع مدة بسط الهيمنة الرومانية على

حوض البحر المتوسط، بين منتصف القرن الثالث، ومنتصف القرن الأول قبل

الميلاد؟"، يمكن القول: إن العامل الجغرافي بشقيه الطبيعي والاقتصادي، هو عامل

أساسي ومهم جداً في وجود القرصنة في أماكن جغرافية معينة، ولكن في الوقت نفسه

لا يمكن عدّه عاملاً مؤثراً تائراً مباشراً في تضخم ظاهرة القرصنة، المتزامن مع بسط

الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط.



الفصل الثاني:

القرصنة، ونشاطات القراصنة في حوض البحر المتوسّط.

❖ أولاً: مفهوم القرصنة.

❖ ثانياً: أشكال القرصنة.

❖ ثالثاً: نشاطات القراصنة.

❖ رابعاً: ممارسات القرصنة.

❖ خامساً: روما والقرصنة السياسيّة.

تمهيد:

ارتبطت صورة القرصنة في العصر الحديث بمجموعة من المغامرين الذين يجوبون البحار بحثاً عن الكنوز المفقودة، أو بعدد من اللصوص الأشرار الذين يرفعون راية سوداء على سفنهم، ويثيرون الرعب في قلوب المسافرين في البحر. إلا أن القرصنة بوصفها ظاهرة ملازمة للملاحة البحرية تحمل صورة أوسع من ذلك بكثير، ولا سيما عند الحديث عن القرصنة في العالم القديم.

ففي المجتمعات القديمة كان ركوب البحر يعدّ عملاً بطولياً، وتحدياً لمواجهة المجهول، ولا سيما لدى الشعوب التي كان البحر نافذتها الوحيدة على العالم. وكانت العائدات التي يوقرها البحر تعدّ مصدراً شرعياً للدخل، مهما كانت طريقة الحصول عليها، ولم يطلق عليها مصطلح "قرصنة" بوصفها عملاً خارجاً عن القانون "على الأقل في نظر الشعوب التي اعتادت هذه الممارسة".

إلا أنه مع التطور المتسارع للحضارة، ولا سيما في الألف الأول قبل الميلاد، أخذ مفهوم القرصنة بالتبلور شيئاً فشيئاً، حتى أصبح من وجهة نظر القوانين العامة عملاً خارجاً عن القانون. وقد ظهر ذلك جلياً في ظل السيادة الرومانية على كامل حوض البحر المتوسط.

ومع ذلك فقد بقيت ظاهرة القرصنة قديماً تحمل أوجهاً مختلفة، وأخذت تتفاعل مع الأحوال السياسية والاقتصادية السائدة آنذاك، وتتأثر بها، إلى أن أصبحت عنصراً أساسياً فيها، لا يمكن فصله عنها بأيّة حال من الأحوال.

ومن ثمّ كانَ لابدّ منَ النظرِ إلى ظاهرةِ القرصنةِ بعيونِ القدماء، ومن ثمّ تحليلها، ومحاولةِ فهمِ كلّ جانبٍ منها على حدة، بهدفِ معرفةِ العواملِ التي أدّت إلى تضخّمها بالتوازي مع مرحلةِ بسطِ الهيمنةِ الرومانيّةِ على حوضِ البحرِ المتوسّط.

أولاً: مفهومُ القرصنة:

لا تخلو معظمُ المصادرِ الأدبيّةِ الكلاسيكيّة¹ من ذكرِ القرصنةِ والقراصنةِ في كثيرٍ منَ المواضع، وإن كانت لم تستخدم دائماً كلمةَ "قرصنة/ قراصنة" بالمعنى الصّريح، إلا أنّها استخدمت مصطلحاتٍ عدة مرادفةً لها². وإن دلّ ذلك على شيءٍ، فإنّه يدلّ على مدى انتشارِ ظاهرةِ القرصنةِ قديماً، حتّى شغلت اهتمامَ الكتّابِ إلى تلك الدرجة.

وتُعرّفُ القرصنةُ أنّها: "السّطو المسلّحُ باستخدامِ السّفنِ" بحيث لا يشملُ هذا التعريفُ عمليّاتِ السّطو التي تجري في عرضِ البحرِ فحسب، بل يشملُ تلك التي تجري على الشّواطئ أيضاً³.

¹ قامَ فارن بإحصائيّةٍ لعددِ الكلماتِ الدّالةِ على "القرصنة" في المصادرِ الأدبيّةِ الكلاسيكيّةِ جميعها، وتبيّنَ ذكرُ القرصنةِ في عددٍ كبيرٍ منها. انظر الجدول رقم (1-2).

² في كثيرٍ منَ الأحيان يأتي مصطلحُ اللصوصيّةِ، أو النّهب والسّلب، أو قطع الطّرق إلخ.. مرادفاً لمفهومِ القرصنةِ قديماً، وهذا ما دفعَ الباحثينَ لإجراء دراساتٍ لغويّةٍ بهدفِ التّمييزِ بين تلكِ المصطلحات، وربّما ذلك ما جعلَ الغموضَ يحيطُ بمفهومِ القرصنةِ قديماً. عن تلكِ الدراساتِ انظر:

De soza, (1992), p. 27; Beek, (2015), p.3-6; Reardon, (1997), p.5- 43; Varenne, (2013), p. 15- 18.

³ Ormerod, (1924), p. 60; De soza, (1992), p. 27; Trimboli, (2016), p. 6.

وتُعدّ القرصنة في هذه الأيام نشاطاً غير شرعيّ، وجريمةً تعاقبُ عليها القوانينُ الدوليّةُ جميعها، وتضعُ أحكاماً جزائيّةً؛ لردع أيّة ممارساتٍ تتسمُ بطابعِ القرصنة¹. ولا سيّما أنّ القرصنة لم تعد تشملُ البحارَ فقط؛ بل تشملُ القرصنة الجويّة في الطائرات أيضاً، وكذلك قرصنة المعلوماتِ المترافقة مع التطوّر التّقنيّ المعاصر².

وفي الوقتِ الذي تتفقُ فيه القوانينُ الدوليّةُ المعاصرةُ جميعها على إدانة ظاهرة القرصنة، لم تكن الدّولُ جميعها قديماً تتفقُ على ذلك؛ فالى جانبِ الدّولِ التي عدّت القرصنة عملاً غيرَ شرعيّ، وسعت إلى محاربته "كأثينا ورودس وروما"، كانت هناك دولٌ اتخذت من القرصنة مورداً اقتصادياً لكسبِ الرّزق، ومارسته ممارسةً منظّمةً "كجزيرة كريت وكيليكية". ودولٌ أخرى وإن كانت لم تُمارسِ القرصنة مباشرةً، إلا أنّها تحالفت مع القراصنة ووظفتهم جنوداً مرتزقةً لخدمة مصالحها "كمقدونيا وبونتوس".

كذلك كان إطلاقُ لقبِ "قرصان" قديماً على شخصٍ ما، يختلفُ باختلافِ وجهةِ النّظرِ للموضوع، أو بالأحرى من وجهةِ نظرِ الجانبِ الأقوى، ويمكنُ فهمُ ذلك على سبيلِ المثالِ، من قصّة تُروى عن الاسكندر المقدونيّ عندما قبضَ على أحدِ القراصنة وسأله ماذا تظنّ نفسك فاعلاً عندما تتعدّى على الآخرين في البحر، فأجابهُ:

"أفعلُ مثلكَ تماماً عندما تتعدّى على العالمِ بأسره، ولكنّي أفعلُ ذلك بسفينةٍ صغيرةٍ فأسميُ قرصاناً، في حين تفعلُ أنتَ ذلكَ بأسطولٍ كبيرٍ فتسميُ إمبراطوراً"³.

¹ Fish, (2017), p. 42- 44.

² ماخوفسكي، (2008)، ص 272، 318.

³ Cicero, Rep, III, 24.

وربما كان لقب "قرصان" في وقتٍ باكرٍ من تاريخ بلاد اليونان، أي نحو القرن الثامن قبل الميلاد¹، يعدُّ مدعاةً للفخر، وليس عملاً تُدينه الأعراف والقوانين، فقد كان أوديسيوس² بطل ملحمة الأوديسة يفتخر أنه قرصان، ويتحدث عن نفسه قائلاً:

لم أكن أبالي أبداً بالزراعة، ولا بالعيش في بيتٍ وتربية أطفالٍ صالحين، بل وجدتُ متعتي في ركوب السفن الطويلة ذات المجاذيف، وأحببتُ الرماح المصقولة، والمناوشات بالسهم، وأصناف العذاب التي تهزُّ الآخرين رعباً. المجازر تناسبني، وضعتها السماء بداخلي بشكلٍ ما، فكل امرئٍ متعة الخاصة! قبل إبحارنا نحن الشباب الآخيون³ إلى طروادة، قُدت الرجال بتسع غاراتٍ بالسفن على شواطئ غريبة، وقد كان الحظُّ حليفنا، إذ حصلنا على غنائم وفيرة هناك، وتقاسمنا كثيراً منها فيما بيننا. وهكذا ازدهرت مكانتي وعلا شأني بين الكريتيين⁴.

¹ النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد، هو التاريخ التقريبي "لكتابة" ملحمتي الإلياذة والأوديسة. ولما كانت أحداث هذه الملحمة قد جرت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فهذا يعطي انطباعاً عن مشروعية القرصنة في المدّة بين الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد، وتاريخ كتابة الملحمة. وللمزيد من المعلومات انظر: أحمد علي، (1974)، ص 427-650.

² أوديسيوس (Odysseus): هو بطل ملحمة الأوديسة، التي تنسب للشاعر الإغريقي هوميروس، وقد كانت أسفار أوديسيوس وعودته إلى وطنه العنصر الأساسي في تلك الملحمة.

³ الآخيون (Achaeans): نسبةً إلى منطقة آخايا الواقعة في شمال شرق شبه جزيرة البلقان، وهي اتحاد

فدرالي بين عددٍ من المقاطعات الصغيرة.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1180.

⁴ Odyssey, 14, 222- 234.

يُعطي أوديسيوس في وصفه لنفسه صورةً للقرصان المثالي في ذلك الوقت، وإن لم يكن قد لُقِبَ نفسه في هذا المشهد بلقب "قرصان" ¹ بصريح العبارة، إلا أن مضمون هذا اللقب واضح هنا بما لا يدع مجالاً للشك.

وعلى أية حال، لم يكن الرومان من الشعوب التي مارست القرصنة ممارسةً منظّمةً، أو سمحت بها رسمياً طيلة تاريخها، بل إنها سنتت القوانين الرادعة لأشكال القرصنة جميعها ²، وكانت عقوبة ممارسة القرصنة في القانون الرماني هي الموت، إما صلباً، أو بقطع الرأس، أو بالإطعام للوحوش ³.

وقد كان كل شخص يُوجّه إليه "تُهمة القرصنة" يُعدّ عدو الشعب الروماني "HOSTIS POPULI ROMANI"، وتجب محاسبته، ومحاربته إن تطلّب الأمر. ومثال ذلك بومبيوس سكستوس ⁴ الذي اتُهم بممارسة القرصنة، والتعاون مع القراصنة ضد حكومة روما الشرعية ⁵. وكذلك فيريس ⁶ الذي اتُهمه شيشرون في

¹ يتحدث أوديسيوس في موضع آخر من الأوديسة على أنه قاد مجموعة من القراصنة؛ لمهاجمة شواطئ مصر. Odyssey, 17, 425.

² Fish, (2017), p. 12- 13; Reardon, (1997), p. 128, 135.

³ Trimboli, (2016), p. 46.

⁴ بومبيوس سكستوس (Pompeius Sextus): هو الابن الأصغر لبومبيوس ماغنوس، ولدَ نحو عام 67 ق.م. وبعد اغتيال والده عادَ إلى أفريقيا، ثم انضمَّ إلى شقيقه في إسبانيا. وفي عام 43 ق.م. عيّنهُ السناتو قائداً لأحد الأساطيل، إلا أنه تمردَ على حكومة روما بعد رفضها مطالبته بميراث أبيه، فسيطرَ على صقلية واتخذها قاعدةً للإغارة على السفن الرومانية.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1180.

⁵ De Souza, (1999), p. 188- 194.

وعن اتهام سكستوس بممارسة القرصنة ومحاربته، انظر: De Souza, (1992), p. 155- 169. ⁶ فيريس (Verres): هو حاكم ولاية صقلية ما بين عامي 73 - 71 ق.م، برتبة قنصل سابق، استخدم ثراءه ونفوذه لابتزاز أموال الولاية، وقد تمكّن شيشرون من إدانته بتهمة الفساد.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1542.

وعن ممارسة فيريس للقرصنة، ومحاكمته، وإعدامه انظر:

De Souza, (1992), p. 73- 82.

خطاباته السياسية بممارسة القرصنة¹، وتمكّن في نهاية المطاف من محاكمته، ثم أُعدمَ
بتهمة الخيانة وممارسة القرصنة².

ويرى بعض الباحثين أيضاً أنّ مفهوم القرصنة قديماً كان يختلطُ بمفهوم الحرب
أيضاً؛ إذ إنّه من الصعب التمييز بين هذين الجانبين في العصور القديمة، فكلاهما
يحمل السمات نفسه³. في حين يظنّ آخرون أنّ القرصنة هي إحدى أدوات الحرب،
تُوظفُ لضرب اقتصاد العدو⁴.

ويبدو أنّ ما أوقع الباحثين في موضوع الخلط بين القرصنة والحرب قديماً، هو
تعميم مصطلح القرصنة؛ فلو أنّهم حلّلوا القرصنة إلى أشكالٍ عدّة، ونظروا إلى كلّ منها
بحسب طبيعته، والدوافع المحركة له؛ لجعل ذلك مسألة التمييز بين الحرب والقرصنة
أكثر وضوحاً. وهذا ما دفعني من ثمّ إلى تصنيف القرصنة في أشكالٍ عدة، ليسمح
بفهمٍ أعمقٍ وأوضح أيضاً للعوامل التي تسببت في تضخم ظاهرة القرصنة المتزامن مع
بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط.

¹ انظر الخطاب الثاني ضد فيريس. Cicero, II Verr, 1- 5.

² Steel, (2001), p. 31.

³ De soza, (1992), p. 106.

⁴ Trimboli, (2016), p. 37.

ثانيًا: أشكال القرصنة:

تختلف أشكال القرصنة باختلاف الجهة التي تُمارسها، والدوافع التي تحركها، وطبيعة النشاط الذي تقوم به. وإن كانت كلها تتطوي تحت مفهوم القرصنة، إلا أنها تختلف عن بعضها بعضاً في كثير من الجوانب، وبناءً عليه يُمكن تصنيف القرصنة في ثلاثة أشكال:

1 القرصنة غير المنظمة (الفردية):

وهي ذلك الشكل من القرصنة الذي كان يُمارس من أفراد أو مجموعات غير منظمة، ولم تتخذ من القرصنة عملاً تمتنّه، أو وسيلة؛ لتحقيق أهدافٍ سياسية من وراءها، وإنما كان الباعث عليه الطمع في الحصول على بعض المال أو الغنائم. ويقدم برادفورد بعض الأمثلة التي تمثل هذا الشكل من أشكال القرصنة، إذ يقول:

كان القراصنة في بعض الأوقات قراصنة ليس إلا؛ فكانوا أحياناً مستكشفين أو تجاراً على متن سفن طويلة، ومثلما كانوا مستعدين لممارسة التجارة مع اليقظين والأقوياء، كانوا مستعدين لنهب الضعفاء وغير الحذرين أيضاً. وكانوا في بعض الأحيان محاربين في طريقهم لساحة القتال، أو في ساحة القتال؛ إذ يسرقون أعداءهم و

جيران أعدائهم. أو محاربين في طريق عودتهم إلى الديار من ساحة المعركة¹.

ويتفق ذلك مع رأي تريمبولي أن القرصنة أحياناً كانت خاضعة إلى عامل "توفر الفرصة"، الذي عدّه أقلّ العوامل تأثيراً في ازدهار القرصنة. ويقول في هذا السياق:

"يمكن أن يكون الأمر بكل بساطة أن صياداً يعرف البحر جيّداً، ويلحظ مرور السفن من ممّرات معينة، فيستغل الفرصة ويخاطر للحصول على غنيمة كبيرة"².

في حين يرى بعض الباحثين أن السبب الذي قد يدفع الصيادين، أو التجار إلى ممارسة هذا الشكل من القرصنة، هو انخفاض أسعار الأسماك والبضائع، مقابل ما توفره القرصنة من عائدات مادية كبيرة³.

وبالنظر في هذه الآراء، يمكن الاستنتاج أنه كان هنالك عوامل عدّة أسهمت مجتمعة في ظهور هذا الشكل من أشكال القرصنة؛ فعامل توفر الفرصة يرتبط أساساً بعامل غياب الأمن، فلو كان هنالك من يراقب الأمن في البحر، لما تجرّأ أحد على مهاجمة السفن. وغياب الأمن هو نتيجة طبيعية لانتشار الحروب، التي تشكّل بدورها بيئة خصبة ليس للقرصنة فحسب، بل لكل أنواع اللصوصية. هذا فضلاً عن العوامل

¹ Bradford, (2007), p. 4.

² Trimboli, (2016), p. 25.

³ Yuito, (2018), p. 8- 9.

الاقتصادية التي يمكن عدّها سبباً مباشراً وراء تحوّل نشاط بعض الأفراد من العمل الشرعي كالتجارة، إلى نشاط غير شرعي كالقرصنة.

وعلى أية حال، يمكن القول إنّ هذا الشكّل من أشكال القرصنة وإن كان منتشرًا في أثناء بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، فمن غير الممكن أن يشكّل تهديدًا حقيقيًا على أمن روما، أو سلامة تجارتها.

2 القرصنة المنظّمة (مهنة القرصنة):

هي ذلك الشكّل من القرصنة الذي كانت تمارسه مجموعات منظّمة من القراصنة، اتخذت من القرصنة مهنة؛ لكسب المال، وتحقيق الثراء. وأحيانًا كوّنت تلك الجماعات دولاً قويّة، وجعلت من مهنة القرصنة موردًا اقتصاديًا أساسيًا لها.

وقد كان هذا الشكّل من أشكال القرصنة نشطًا في بلاد اليونان في القرن السادس قبل الميلاد؛ إذ بلغ القراصنة مبلغًا من القوّة مكنهم من إنشاء دويلات، وعقد تحالفات مع غيرهم من دول القرصنة¹. ويعدّ بوليقرات² أشهر من تمكّن من تأسيس دويلة تمتلئ القرصنة، وتملك أسطولًا بحريًا كبيرًا جدًّا،

¹ ماخوفسكي، (2008)، ص 22، 24.

² بوليقرات (Polycrates): هو حاكم وطاغية جزيرة ساموس، نحو عام 525 ق.م، كان يهاجم الجميع دون استثناء بأسطوله الذي قيل أنه بلغ نحو 1000 سفينة حربية.

Nash, (2018) p. 131.

وتعتقد التحالفات مع غيرها من معاقل القرصنة¹. ويتحدث هيرودوت² عن طغيان بوليقراط قائلاً:

"كانت غارات النهب التي يقوم بها واسعة النطاق، وعشوائية، وقد أثر عنه قوله: إن الحليف سيكون أكثر امتناناً لو أُعيد إليه ما أخذ منه، من أن لم يأخذ منه أبداً. وقد استحوذ على عدد من الجزر، ومن المدن على البر الرئيس كذلك"³.

وكان الكريتيون من الشعوب التي امتهنت القرصنة منذ عصر أوديسيوس حتى عصر الرومان، وعقدوا تحالفات مع غيرهم من دول القرصنة، ولم يتوانوا عن الانضمام إلى الجهة التي كانت تُعطيهم مقداراً أكبر من المال. حتى إن جزيرة كريت اعتُبرت جنّة عُدت في شرق البحر المتوسط⁴.

وإلى جانب شهرتهم بممارسة القرصنة، كان الكريتيون يعملون جنوداً مرتزقة في خدمة بعض الدول⁵. أي إنهم كانوا قراصنة مرتزقة، إلى جانب أنهم قراصنة يعملون

¹ De Souza, (1992), p. 131.

² هيرودوت (Herodotus): المؤرخ اليوناني الشهير، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. وله كتاب "التواريخ" الذي يتحدث فيه عن الحروب بين الإغريق والفرس، وقد كتب وصفاً لكثير من البلدان التي زارها بنفسه.

³ Herodotus, III, 39.

⁴ Bradford, (2007), p. 30.

⁵ Cummings, (2014), p. 52.

لحسابهم الخاص. ويقول: أبيان أنَّ الكريتيين زودوا مثيرداتس السادس¹ بالمرتزقة في أثناء حربه مع الرومان².

ولا يختلف الكيليكيون عن سكان جزيرة كريت في امتهان القرصنة؛ إذ يصفهم استرابو أنهم أول من مارس القرصنة المنظمة³، وقد ذاع صيئهم منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد، إذ نظموا أنفسهم في جماعات يحكمها "زعيم قرصنة" وكان أقوى زعمائهم وأشهرهم يُدعى تريفون⁴، وأخذوا يمارسون النهب والسلب في شرق البحر المتوسط وبحر إيجه⁵. وعملوا مرتزقة في خدمة عدد من الدول والملوك⁶.

وفي اللورية تمكن الملك أجرون⁷ في شرق الأدياتيكي، من توحيد القبائل التي كانت تُمارس مهنة القرصنة وتنظيمها، وجعل من تلك المهنة مورداً اقتصادياً أساسياً لمملكته⁸. كذلك اشتهر سكان ليغوريا في امتهان القرصنة، والعمل جنوداً مرتزقة مقابل الحصول على المال أيضاً⁹.

¹ مثيرداتس السادس (Mithradates Eupator VI) : (120-63 ق.م.)، أشهر حكام مملكة بونتوس، الواقعة على البحر الأسود، وأحد ألد أعداء روما في الشرق.

² Apian, V, VI, 1.

³ Strabo, XIV, V, 2.

⁴ تريفون (Tryphone Diodotos): هو أحد المنافسين على عرش المملكة السلوقية، نحو عام 140 ق.م، حيث فرّ إلى كوركيسيوم، أحد معاقل القرصنة في كيليكيا، وعمل على تنظيم القرصنة لمساعدته في الوصول إلى الحكم.

De soza, (1992), p. 145.

⁵ Bradford, (2007), p. 38.

⁶ De soza, (1992), p. 152.

⁷ أجرون (Agron): ملك الأدياتيكيين (الإلوريين)، توفي نحو 230 ق.م. وخلفته زوجته الملكة تيوتا في حكم اللورية.

Erskine, (1973), p. 51.

⁸ Bradford, (2007), p.35; Dzino, (2005), p. 4; 263. نصحي، (1978)، ص 263.

⁹ Ormerod, (1924), p. 163.

ويُلاحظ أنَّ وجودَ مثل هذا النوعِ من القرصنة يرتبطُ بعاملٍ ثابت، أي العاملِ الجغرافي؛ لأنَّ القرصنةَ المنظَّمةَ تحتاجُ بالضرورةِ إلى وجودِ معاقلٍ دائمةٍ، وموانئٍ لبناءِ السفنِ وتجهيزها ورسوؤها¹. ومن ثمَّ ينشطُ هذا النوعُ ويزدهرُ في حالةِ الفوضى الأمنية، وأكثرَ من ذلك في أثناءِ الحروب، وهذا ما ينطبقُ تمامًا معَ أوضاعِ حوضِ البحرِ المتوسطِ ما بينَ منتصفِ القرنِ الثالثِ، والأوَّلِ قبلَ الميلادِ.

وتكمنُ خطورةُ هذا الشَّكلِ من أشكالِ القرصنةِ بصورةٍ واضحةٍ في جانبينِ أساسيينِ:

- أ- أولُهما أنَّه كانَ يجري بأسلوبٍ منظَّمٍ، وتحتَ رايةِ زعيمٍ قراصنةٍ أو ملكٍ أو حاكمٍ، وهذا يحوِّلُ القرصنةَ من جماعاتٍ متفرقةٍ وضعيفةٍ إلى ما يمكنُ عدُّه "أسطولاً حربياً" منظَّماً.
- ب- والجانبُ الآخرُ هو خدمةُ هؤلاءِ القراصنةِ بوصفهم مرتزقةً لدى غيرهم من الملوكِ والحكَّامِ، وعقدُ التحالفاتِ والاتفاقياتِ معهم مقابلَ المالِ، أي اتِّحادُ القرصنةِ المنظَّمةِ معَ القرصنةِ السياسيَّةِ.

ومن ثمَّ يمكنُ لذلك أن يشكِّلَ تهديدًا ليس على مواصلاتِ روما البحريَّةِ وتجارتها فحسب، بل على أمنها أيضًا. وهذا بالضبطِ ما عانت منه روما في أثناءِ بسطِ هيمنتها على حوضِ البحرِ المتوسطِ.

3-القرصنةُ السياسيَّةُ (الدوليَّة):

وهي ذلك الشَّكلُ من القرصنةِ الذي كانت تُمارسه الدَّول، والحكومات، لضربِ اقتصادِ الدَّولِ المُعاديةِ لها وقوتها. وغالبًا لم يكن يتمُّ ذلك بطريقٍ مباشرٍ، وإنَّما عن

¹ راجع الفصل الأول - معاقلُ القرصنة في حوضِ البحرِ المتوسطِ.

طريق استخدام القرصنة مرتزقة، يخدمون سياسات الدول مقابل الحصول على المال والغنائم.

والشواهد على هذا الشكل من أشكال القرصنة كثيرة؛ فمنذ أيام الحروب الفارسية- اليونانية¹، أسس عدد من دول مدن اليونان اتحاد ديلوس² بغرض ممارسة القرصنة ضد أملاك الامبراطورية الفارسية³. كذلك في أثناء الحروب البليبونيزية⁴ استخدمت اسبارة القرصنة مرتزقة بهدف ضرب قوة الأساطيل الأثينية⁵.

والأمر نفسه تكرر في الحروب التي دارت بين الممالك الهلنستية أيضاً؛ فقد كان استخدام القرصنة المرتزقة أمراً شائعاً للغاية⁶، فعلى سبيل المثال: كان كل من

¹ الحروب الفارسية- اليونانية: هي سلسلة من الحروب التي دارت بين دول مدن اليونان، والإمبراطورية الفارسية، ما بين (492- 449 ق.م.). وانتهت بانتصار اليونان.

<https://www.britannica.com/event/greco-persian-wars>

² اتحاد ديلوس: هو اتحاد بين مجموعة من دول مدن اليونان، أسس بزعامة أثينا عام 478 ق.م.، وجعلت جزيرة ديلوس مقره الرئيسي.

<https://www.britannica.com/topic/delian-league>

³ Trimboli, (2016), p. 48.

⁴ الحروب البليبونيزية: هي الحروب التي دارت بين أثينا واسبارطة، بين (431-404 ق.م.)، وتحالفت معظم دول مدن اليونان، قسم مع أثينا، وقسم آخر مع اسبارطة. وانتهت بانتصار اسبارطة وحلفائها. ويعد ثوكوديدس أول المؤرخين الذين تناولوا دراسة الحروب البليبونيزية، وقد تحدث عن انتشار القرصنة في هذه الحروب في كثير من جزر بلاد اليونان، واستخدام كلا الطرفين المتنازعين القرصنة ضد بعضهم بعضاً.

Thucydides, 2, 32.

⁵ Trimboli, (2016), p. 49; De Souza, (1992), p. 114.

⁶ Ormerod, (1924), p. 130.

أنتيغونوس جوناتاس¹ وبطليموس الثاني² وأنطيوخوس الثالث³ على علاقة وطيدة مع

زعماء القراصنة، وكانوا يعقدون معهم التحالفات، ويوظفونهم؛ لضرب قوة خصومهم⁴.

وكان فيليب الخامس⁵ من أبرز الملوك الهلنستيين الذين مارسوا القرصنة

السياسية في حروبهم أيضاً، وتحالف مع القراصنة الأيتوليين⁶، والإلوريين⁷، واتهمته

أثينا بممارسة القرصنة مباشرة بحقها⁸. وكذلك كان مثيرداتس السادس من أبرز خصوم

روما الذين استخدموا القراصنة مرتزقة في حروبهم البحرية معها⁹. وسيجري الحديث

عن ذلك لاحقاً في دراسة القراصنة المرتزقة.

¹ أنتيغونوس جوناتاس (Antigonos II Gonatas): هو ملك مقدونيا ما بين (276-239 ق.م.)، استطاع فرض هيمنته السياسية على معظم بلاد الإغريق.

<https://www.britannica.com/biography/Antigonus-II-Gonatas>

² بطليموس الثاني فيلادلفوس (Ptolemy II Philadelphus): هو ثاني حكام مصر البطالمة، حكم ما بين (285-246 ق.م.) تمكن من توسيع سلطته، وجعل الاسكندرية مركزاً مشعاً للعلوم والفنون.

<https://www.britannica.com/biography/Ptolemy-II-Philadelphus>

³ أنتيوخوس الثالث الكبير (Antiochus III The Great): هو أحد أشهر حكام سورية السلوقية، حكم ما بين (242-187 ق.م.)، وعمل على تقوية مملكته، إلا أنه أخفق في وجه الرومان الذين قلعوا قوته بعد هزيمة

مغنيزيا عام 189 ق.م. <https://www.britannica.com/biography/Antiochus-III-The-Great>

⁴ تارن، (1954)، ص 103.

⁵ فيليب الخامس (Philip V): (238-179 ق.م.)، هو ابن ديمتريوس الثاني، ملك مقدونيا، تولى الحكم شاباً، وأثبت جدارته بوصفها واحداً من أقوى ملوك مقدونيا. Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1129.

⁶ القراصنة الأيتوليين: نسبة إلى منطقة أيتوليا، وهي منطقة وعرة، تقع في وسط غربي بلاد اليونان، وفي القرن الثالث قبل الميلاد، تمكنت قبائل تلك المنطقة من تشكيل اتحادٍ فدرالي فيما بينها.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1180

⁷ De Souza, (1992), p. 36, 124.

⁸ Bradford, (2007), p. 26.

⁹ Appian, XII, 92- 93; Braitis, (2016), p. 36.

إذن يُلاحظ أنَّ العاملَ المشتركَ بينَ الحالاتِ التي جرى فيها استخدامُ القرصنةِ السياسيَّةِ جميعها هو "وجودُ الحرب"، ومن ثمَّ يُمكنُ عدُّ القرصنةِ السياسيَّةِ نوعاً عن غيرها من أشكالِ القرصنةِ، شكلاً من أشكالِ الحربِ البحريَّةِ، وجانباً من جوانبها، ولكن مع ذلك يُمكنُ تمييزها من القرصنةِ المنظَّمةِ بفارقينِ أساسيين:

أ- القرصنةُ المنظَّمةُ كانت تجري تحت رايةِ زعيمِ قراصنة، وبهدفِ كسبِ المالِ والغنائمِ، وتحقيقِ الثَّراءِ. في حين أنَّ القرصنةَ السياسيَّةَ كانت تجري تحت رايةِ ملكٍ أو حاكمٍ، وبهدفِ تحقيقِ أطماعٍ سياسيَّةٍ أو مكاسبٍ حربيَّةٍ بالدرجةِ الأولى.

ب- القرصنةُ المنظَّمةُ هي عملٌ من أعمالِ اللصوصيَّةِ، يستهدفُ أيَّ جهةٍ كانت لا على التَّعيينِ طالما أنَّها تحقِّقُ أطماعَ القراصنةِ الماديَّةِ، ومن ثمَّ لا يُمكنُ عدُّها شكلاً من أشكالِ الحرب. في حين أنَّ القرصنةَ السياسيَّةَ هي إحدى أشكالِ الحربِ البحريَّةِ، تستهدفُ عدوًّا محدَّداً، ولغرضٍ محدَّدٍ، سواءً استخدمت زعماءُ القراصنةِ مرتزقةً لتحقيقِ هدفها، أم أنَّها قامت بذلك بنفسها.

ويبدو أنَّ تريمبولي كانَ مصيباً عندما جعل " الحرب " أكثرَ العواملِ تأثيراً في

ازدهارِ القرصنة¹؛ لأنَّها العاملُ الأوَّلُ المُسبِّبُ للفوضى الأمنيَّةِ، والمشاكلِ الاقتصاديَّةِ،

والبيئةُ الحاضنةُ لكلِّ أنواعِ اللصوصيَّةِ ومن بينها القرصنةُ.

¹ Trimboli, (2016), p. 25.

ثالثاً: نشاطات القرصنة:

كشفت دراسة الفصل الأول مدى ارتباط ظاهرة القرصنة بالعوامل الجغرافية، وما توقّره تلك العوامل من فرص أمام القرصنة لممارسة نشاطاتهم. ولا شك أن القرصنة القدماء قد عرفوا جيّداً كيف يستغلّون تلك الفرص ليقوموا بأعمالهم العدوانية ضدّ السفن، وضدّ الموانئ، والتجمّعات السكّنية القريبة من الشواطئ أيضاً.

1-نشاطات القرصنة ضدّ السفن:

عرف القرصنة كيف يستفيدون من طرق الملاحة البحرية؛ لممارسة نشاطاتهم؛ إذ كان الملاحون قديماً مجبرين في أغلب الأحيان على الإبحار بموازاة السواحل، إذ لا تغيب اليابسة عن أعينهم، وكانوا يعبرون من مسارات بحرية ثابتة، ومعابر محددة بين الجزر، وكثيراً ما كانوا يلجؤون إلى الموانئ في النهار إلى أن يعودوا إلى الإبحار مع حلول الظلام¹.

وبناءً على ذلك كان القرصنة يضعون خططاً محكمة؛ للإيقاع بضحاياهم؛ إذ كانوا يتسلّلون بقواربهم الصغيرة خفية إلى الموانئ²، ثم يتنكّرون بين التجار والبحارة، بهدف التّجسس عليهم، ومعرفة مواعيد وصول السفن، ومغادرتها، ووجهتها، وطبيعة ما

¹ Ormerod, (1924), p. 15.

² ماخوفسكي، (2008)، ص 25.

تحملة من بضائع¹، وبعد ذلك يُسارعون إلى نصب الكمائن بين الجزر والممرات البحرية، منتظرين مرور السفن؛ لمهاجمتها تحت جنح الظلام².

وغالبًا ما كان القراصنة يفضلون استخدام القوارب الصغيرة على السفن الثقيلة، إذ تمنحهم السرعة في المناورة وفي الهرب عند الحاجة³، وكذلك الاختباء والتخفي بين الصخور والخلجان⁴.

وأحيانًا أخرى كانوا يستخدمون سفنًا كبيرة، ويرد ذلك عند أبيان في معرض حديثه عن مثريداتس السادس وعلاقاته بالقراصنة:

"كانوا في البداية يتجولون في البحار ببعض القوارب الصغيرة،
ويضايقون السكان مثل ما يفعل اللصوص، وكلما طالت الحروب،
غدوا أكثر عددًا، وأصبحت سفنهم أكبر حجمًا"⁵

وعلى أية حال، تُعطي الطرق الملاحية المارة عبر البحر الإيجي، وجنوبي شبه جزيرة الباليونيز، صورة واضحة عن استغلال القراصنة للعوامل الجغرافية، وللمسارات الملاحية أيضًا؛ إذ كانت تلك المسارات عرضة لغارات القراصنة الذين يختبئون في الجزر الصخرية المنتشرة بكثرة هناك⁶.

¹ Bradford, (2007), p. 39.

² ماخوفسكي، (2008)، ص 2.

³ Ormerod, (1924), p. 28; Pitassi, (2012), p. 203.

⁴ Bradford, (2007), p. 48.

⁵ Apian, XII, 92.

⁶ ماخوفسكي، (2008)، ص 24.

وقد كانت قناة كيثيرا¹ أكثر الطرق الملاحية خطورة نتيجة نشاط القرصنة². وهناك عبارة

وردت في أحد المخطوطات القديمة³ تصوّر خطورة الملاحة في تلك المنطقة إذ تقول:

"إن كنت ترغب أن تبحر إلى رودوس،

فقط اسأل عرافاً: كيف ينبغي عليّ أن أبحر؟

وهذا ما سيُخبرك به العراف:

اختر سفينة جيدة، وتفادى الأشهر العاصفة

وستصل بخير وسلام إلى جزيرة رودوس

ما لم يقبض عليك القراصنة في البحر"⁴.

وأغلب الظن أن معظم هؤلاء القراصنة كانوا من الكريتيين، الذين استفادوا من

موقع جزيرتهم لممارسة تلك النشاطات⁵. وفي موضع آخر تُظهر المخطوطة ذاتها

سكان جزيرة كريت بمظهر القراصنة واللصوص جميعاً، إذ تقول:

¹ قناة كيثيرا: هي عبارة عن ممر بحري بين جزيرة كريت، وشبه الجزيرة البليونيزية. انظر الخريطة رقم (5).

² Ormerod, (1924), p. 20.

³ أنثولوجيا بلاتينا (Anthologia Palatina): هي عبارة عن مجموعة من القصائد والحكم اليونانية. اكتشفت

هذه المخطوطة سنة 1606م، وتتضمن محتويات من القرن السابع قبل الميلاد، حتى القرن السابع الميلادي.

<https://en.m.wikipedia.org/wiki/Palatine-Anthology>

⁴ Anthologia Palatina, XI, 162, As cited in Bradford, (2007), p. 14, 206.

⁵ Ormerod, (1924), p. 15.

"من سبق له منكم أن سمع عن رجل أمين في كريت!

لقد كانوا دائماً يمارسون القرصنة، والسرقعة، والخداع"¹.

ومثلما استفاد القراصنة من العوامل الجغرافية؛ لممارسة نشاطهم، استفادوا كذلك من العوامل الجوية؛ فمثلاً كانت الرياح والتيارات البحرية تُجبر السفن المتجهة شمالاً من ممر صقلية على التوجه نحو أرخبيل مالطا، حيث يكون القراصنة قد نصبوا شراكهم للإيقاع بتلك السفن².

ولما كانت أعمال الملاحية البحرية تتوقف كلها تقريباً في فصل الشتاء، كانت تتوقف معها نشاطات القرصنة، وعندها يلجأ القراصنة؛ للاختباء في أوكارهم مُنتظرين موسم الملاحية القادم³، أي بين شهر أيار "مايو" وشهر تشرين الثاني "نوفمبر"⁴. وقد كان بعض التجار والمسافرين في البحر يفضلون مواجهة العواصف البحرية شتاءً على مواجهة القرصنة في موسم الملاحية⁵.

2-نشاطات القرصنة ضد الموانئ، والتجمعات السكنية:

لم تكن غارات القرصنة على الموانئ والتجمعات السكنية أقل مما كانت على السفن، فكثيراً ما كان القراصنة يستغلون الظروف المواتية؛ ليمارسوا نشاطاتهم على اليابسة، مثل ما كانوا يفعلون في عرض البحر.

¹ Anthologia Palatina, VII, 654, As cited in Bradford, (2007), p. 30, 208.

² Ataus, (2004), p. 46.

³ Ormerod, (1924), p. 18.

⁴ Lewis, (2019), p. 87.

⁵ Sestier, (1880), p. 53.

وكانَ القراصنةُ يتسلَّلونَ إلى الموانئ، ويتتَّكرونَ بزيِّ التَّجار، ويختلطونَ بين البحَّارةِ للتجسَّسِ عليهم، كانوا أحياناً أخرى يهاجمونَ السفنَ وهي ما تزالُ راسيةً في الميناءِ، بكلِّ جرأةٍ ومن بدونِ لجوئهم إلى التتَّكرِ أو الاختباءِ¹.

وقد كانت خططهم وأساليبهم تختلفُ في كلِّ مرَّةٍ عن سابقتها؛ ويروي باوسينيَّاس² قصةً عن القراصنةِ الإلوريين، تُظهر إحدى خططهم التي كانوا يتَّبَعونها في مهاجمةِ الموانئ:

والآنَ بعدَ أن أحسَّ الإلوريونَ بطعمِ السُّلطةِ، وكانوا تواقينَ إلى المزيدِ، شرعوا ببناءِ السفنِ، ونهبِ كلِّ من يُصادفهم. وقد حلَّوا يوماً في شاطئِ موثون³ ورسَّوْا في مينائها أصدقاءً. ثمَّ أرسلوا مبعوثينَ للمدينةِ مُعربينَ عن رغبتهم بشراءِ الخمرِ، فحضرَ بعضُ الرِّجالِ إلى السفينةِ مصطحبينَ معهم الخمرَ، إذ باعوه بالسَّعرِ المطلوبِ، واشتروا منَ القراصنةِ بعضَ البضائعِ. وعندما حضرَ في اليومِ التالي عددٌ أكبرُ من سكانِ المدينةِ تبادلوا معهم التجارةَ أيضاً، ولَمَّا خاطرَ عددٌ من الرِّجالِ والنِّساءِ بصعودِ السفينةِ لبيعِ الخمرِ، أخذهم الإلوريونَ وأبحروا بهم في البحرِ الأيوني⁴.

وقد كانَ القراصنةُ عادةً يعتمدونَ أسلوبَ الهجومِ السريعِ، ويفضَّلونَ مهاجمةَ التجمَّعاتِ السَّكنيةِ الصَّغيرةِ التي يسهلُ نهبُها، والهربُ منها قبلَ وصولِ أيِّ مساعدةٍ من السلطاتِ الأمنيَّةِ التي تنتمي إليها تلك التجمَّعاتِ.

¹ Ormerod, (1924), p. 38.

² باوسينيَّاس (Pausanias): هو الرِّخالةُ والجغرافيُّ اليونانيُّ الشهير، تعودُ أصولُهُ إلى ليديا في آسيا الصغرى، سافرَ حولَ العديدِ من بلدانِ البحرِ المتوسطِ، وله كتابٌ وصفُ بلادِ الإغريقِ.

<https://www.britannica.com/biography/Pasusaniias-Greek-Geographer>

³ موثون (Mothone): هي إحدى المدنِ الساحليَّةِ الواقعةِ في مسينيا في بلادِ اليونانِ.

⁴ Pausanias, 4,35,6.

وكذلك كانوا يستغلّون المناسبات التي يجتمع فيها الناس، أو الأماكن المكتظة، وكانت إحدى أهدافهم المفضلة هي الأضرحة الدينية، إذ يتوقعون إيجاد أناسٍ غير مسلّحين، فيقومون بغاراتٍ سريعة ومفاجئة، ثم يعودون بنصيبٍ وافٍ من الأسرى والأسلاب¹. وكانوا يستغلّون أيام الاحتفالات التي تُقام في القرى القريبة من السواحل، التي تحضرها النساء في الأغلب، وبعض الرجال غير المسلّحين².

ونتيجةً لتلك الغارات؛ أخذ السكّان يقيمون الأسوار والتحصينات حول قراهم، وبُنيت العديد من أبراج الحراسة في معظم شواطئ البحر المتوسط، بهدف إعطاء إنذارٍ في حال اقتراب أي سفينة³، وذلك أن تُشعل النار⁴ في أعلى تلك الأبراج بهدف طلب العون من القرى والمدن المجاورة⁵.

وقد كان هنالك كثيرٌ من هذه الأبراج في جزر البليار وعلى الساحل الإسباني⁶، وكان هنالك عددٌ من تلك الأبراج في بعض الجزر الإغريقية أيضًا، ويُقال إنّها كانت بمنزلة حصون يلجأ إليها الناس في أثناء غارات القراصنة⁷.

¹ Bradford, (2007), p. 39.

² Ormerod, (1924), p. 36.

³ Ibid., p. 40- 44.

⁴ كانت تسمى هذه الطريقة بالإشارات النارية Fire signals.

⁵ ماخوفسكي، (2008)، ص 25.

⁶ Varenne, (2013), p. 121- 123.

استُخدمت تلك الأبراج نفسها من قرطاجة في الحربين البونيتين الأولى والثانية؛ لممارسة القرصنة ضد الأساطيل الرومانية. انظر: الفصل الثاني- القرصنة السياسية المباشرة.

⁷ Ormerod, (1924), 42.

رابعاً: ممارسات القرصنة:

لقد عُرِفَت القرصنة أنّها: عملية السطو المسلح باستخدام السفن، سواء جرى ذلك السطو على السفن في عرض البحر، أم على الشواطئ والموانئ التجارية. وسواء جرى ذلك السطو بطريقة عرضية، أم منظّمة، أو بغرض تحقيق أهدافٍ سياسية، فهو يُعدُّ ممارسةً لمفهوم "القرصنة" بشكلٍ أو بآخر. بيدَ أنّ عملية السطو المسلح تلك لا تقتصرُ على سرقة الأموال والمتاع، بل تشملُ عملياتِ خطف الأشخاص أيضاً بهدف الحصول على فدية مالية لقاء تحريرهم، أو بيعهم في أسواق العبيد. ومن ثمّ يمكنُ تمييزُ ثلاثة أصنافٍ من ممارسات القرصنة التي كانت شائعة قديماً.

1- النهب والسلب:

إنّ القرصنة في جوهرها هي شكلٌ من أشكال اللصوصية، وبطبيعة الحال كان من عادة اللصوص السعي وراء المواد الثمينة، أو الأغراض التي يسهل حملها وبيعها، فقد كانت معظم غنائم القرصنة من الشواطئ من الأسرى، وكانت المسروقات تتنوع بين الماشية والأدوات المنزلية، ولوازم المعابد والخلي الثمينة، أو المشغولات الفضية والذهبية¹.

¹ ماخوفسكي، (2008)، ص 24.

اعتقد أنّ ماخوفسكي يذكّر هذه الأنواع من المسروقات بناءً على مقارنة نشاطات قرصنة العصور الوسطى (الفايكنغ)، مع نشاطات القرصنة في العالم القديم. وهذه المقاربة تعدُّ صحيحة؛ لأنّ جوهر القرصنة واحدٌ في كلّ زمانٍ ومكان.

وأيًا كانت تلك المسروقات، لم يكن القرصنة يجدون صعوبة في تصريفها وبيعها، إذ يقول رستوفيتزف: إنَّ القرصنة "كانَ مرحَّبًا بهم في الموانئ التجاريَّة جميعها ما أن يظهروا محمَّلين بالبضائع"¹

إنَّ هذا القول يُعطي انطباعًا أنَّ القرصنة قديمًا كانت شكلاً من أشكال التجارة، أو ما يمكنُ تسميته بعبارة أدقَّ "التجارة غير الشرعيَّة". وربما كانت تجارة العبيد هي المحرِّك الأول لهذا الشكل من أشكال التجارة!.

وعلى أيَّة حال، لم تكن أعمال السلب والنَّهب التي يقومُ بها القرصنة تقتصرُ على سرقة الأموال والمتاع فحسب؛ بل إنها اتخذت شكلاً آخر في بعض الأحيان؛ إذ كانَ القرصنة يُجبرون السفن التجاريَّة على دفع إتاوات، مقابل السَّماح لها بالمرور الآمن دون التعرُّض للسرقة²، وذلك تحت مُسمَّى "أجور الجنود"³.

وقد كانَ التجار قديمًا مدركين تمامًا خطر تعرُّضهم للقرصنة في رحلاتهم، لذلك كانوا يضعون على متن السفن عددًا من الحراس المسلَّحين، وفي أحيانٍ أخرى كانت تُرافق السفن التجاريَّة سفنٌ حربيَّة؛ لحمايتها من التعرُّض إلى السرقة⁴.

ومع ذلك كانَ التجار في بعض الظروف لا يجروون مطلقًا على الإبحار خوفًا من التعرُّض إلى نهب بضائعهم من القرصنة، وقد حدثَ مثل ذلك الأمر عندما تمرَّد

¹ Rostovtzeff, (1941), p. 196.

² ماخوفسكي، (2008)، ص 22، 24.

³ Bradford, (2007), p. 43.

⁴ Lewis, (2019), p. 93- 101.

سكستوس بومبيوس على حكومة روما وجمع حوله القراصنة، وقطع طرق إمداد روما بالحبوب، ويصف أبيان هذه الحادثة:

"والآن حلت المجاعة في روما، لأن تجار المشرق كانوا خائفين من الإبحار بسبب بومبيوس، وقواته المربطة في صقلية، وسردينية، وكورسيكا، التي تمكنت من قطع الطريق، في حين تمكنت أساطيله من قطع الطريق من جهة أفريقيا وسواحلها"¹.

ومع أن القراصنة كانوا عادةً يضعون خططاً محكمة، ويتجسسون على السفن؛ لمعرفة ما تحمله من بضائع، إلا أنه في أحيان كثيرة كان نجاحهم يعتمد على الصدفة؛ إذ تكون السفن في بعض الأحيان فارغة، أو أن حمولتها قد تكون من البضائع التي لا تمثل للقراصنة قيمة كبيرة، كالأخشاب أو أحجار البناء، وما إلى ذلك². وكثيراً ما كان القراصنة يقعون في أيدي البحارة الذين يقتصون منهم بأقسى العقوبات³.

2- الخطف والفدية:

أشير في بداية هذا الفصل إلى أن بعض المصادر الأدبية الكلاسيكية لم تذكر مصطلح "القرصنة" بصريح العبارة؛ وإنما استخدمت مصطلحات أخرى توحى بمضمونها بممارسة القرصنة. وعلى سبيل المثال، يبدأ المؤرخ الإغريقي الشهير

¹ Appian, V, VIII, 67.

² ماخوفسكي، (2008)، ص 25.

³ Lewis, (2019), p. 94.

هيرودوت مؤلفه (HISTORIES)¹ بذكر روايات عن "خطف" نساء من مدن ساحلية والهرب بهم عبر البحر، وتقول إحدى هذه الروايات:

وفقاً لرواية المطلعين من الفرس، كان الفينيقيون هم السبب في القتال. وكما هو معروف، فقد جاؤوا من منطقة البحر الأحمر إلى بحرنا²، وما أن استقر بهم الأمر حتى شرعوا بالأسفار في البحر، إذ كان من عادتهم نقل البضائع الآشورية، والمصرية، إلى بقاع عديدة، ومن بينها أرجوس³، التي كانت آنذاك دولة قوية تحظى بالاحترام في كامل المنطقة التي ندعوها الآن بلاد الإغريق. وفي أحد الأيام جاء الفينيقيون إلى أرجوس وبدؤوا بتصريف بضائعهم، وبعد مضي خمسة أو ستة أيام من وصولهم، وكانوا حينها قد باعوا معظم بضائعهم، أقبل عدد من النساء إلى الشاطئ ومن بينهم ابنة الملك إيناخوس⁴، وكانت تدعى إيو. وحين كانت النسوة مجتمعات حول مؤخرة السفينة يشترين كل ما يثير إعجابهن، أعطى الرجال الفينيقيون الأمر بمهاجمتهن، ففر معظمهن في وقعت إيو وبعض

¹ صدرت الترجمة العربية الأولى لمؤلف هيرودوت بعنوان "تاريخ هيرودوت" في أبو ظبي عام 2001، وقد جرت هذه الترجمة عن الترجمة الإنكليزية، وليس عن اللغة الأصلية للمؤلف "اليونانية"، وقد اعتمد المترجم أسلوب الترجمة "بتصرف"، متخذاً شكل السرد القصصي، وهو أسلوب أكثر سلاسة للقارئ، إلا أنه لا يتبع التقسيم المعمول به عالمياً للمصادر الكلاسيكية، من حيث تفصيل أرقام الكتب والفصول والفقرات. لذلك أثر استعمال الترجمة الإنكليزية.

² المقصود به البحر المتوسط.

³ أرجوس (Aragos): هي مدينة تقع جنوب بلاد الإغريق.

⁴ إيناخوس (Inachus): ملك مدينة أرجون الأسطوري، يحمل اسم النهر الرئيس في تلك المنطقة نهر إناخوس. Harnblower, Spawforth, (2012), p. 731.

النساء في الأسر، حيث حملهن الرجال إلى السفينة، وأبحروا بهنَّ بعيداً إلى مصر¹.

تُعطي هذه القصة مشهداً واضحاً وجلياً عن إحدى ممارسات القرصنة، الشائعة منذ القديم، ألا وهي "الخطف"، التي تمثل جانباً مهماً من ممارسات القرصنة. وفي هذه القصة ترك هيرودوت مصير الأميرة إيو مجهولاً! ولكن التساؤل عن مصير الأسرى الذين يقعون عادةً بيد القرصنة يُبقي الباب مفتوحاً أمام احتمالات عدة.

يناقش لويس موضوع مصير الأسرى الذين يقعون بأيدي القرصنة، ويعدّ أول احتمال قد يتعرض إليه ضحايا القرصنة هو الموت؛ ذلك أنّ بعض القرصنة في غاراتهم كانوا يهدفون فقط إلى نهب حمولة السفن، ومن ثم كانوا يُغرقون طاقم السفينة في الماء².

إنّ مثل هذا الاحتمال وارد جدّاً في بعض الأحيان، ولكن ليس دائماً؛ كأن يكون القرصنة لصوص غير منظمين، أو ما يمكن إدراجه بعنوان "القرصنة الفردية". أو أن يكون القرصنة ينوون من غارتهم تحقيق مكاسب سياسية معينة، وهو ما يمكن إدراجه بعنوان "القرصنة السياسية"، ومثال ذلك القرصنة الإلوريون الذين قطعوا طريق المبعوثين الرومان وقتلوهم³. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الخطف المنظم، والذي يمكن إدراجه بعنوان "مهنة القرصنة" هو نشاط أخطر وأكثر تشعباً من ذلك بكثير.

¹ Herodotus, I, 1.

² Lewis, (2019), p. 94.

³ حول قصة المبعوثين الرومان انظر:

Willoughby, (2018), p. 73- 89.

وعلى أية حال، تقدّم العديد من الدراسات احتمالاً أكثر شيوعاً في العصور القديمة لمصير الأسرى الذين يقعون في أيدي القراصنة، وهو "الفدية"؛ ذلك أن الحصول على الفدية كان الهدف الأساسي للقراصنة، ولا سيما في شرقي البحر المتوسط¹.

إن هذا الاحتمال وإن كان ممكناً في بعض الأحيان، إلا أن فيه شيئاً من التعميم؛ ذلك أن خيار افتداء الأسرى كان خاضعاً لظروف عدة. وفي هذا السياق يقول أحد الباحثين: إنَّ الشخص المخطوف إن كان قادراً على دفع مبلغ كبير من المال، كان يُقتدى وإن لم يكن قادراً على ذلك، كان يُباع في أسواق العبيد المنتشرة بكثرة آنذاك². ويروي بلوتارخ قصة شهيرة عن وقوع يوليوس قيصر أسيراً بيد القراصنة وكيف عاد سالمًا بعد أن دفع لهم فدية مالية كبيرة لقاء حريته:

في أحد الأيام، ركب قيصر البحر وتوجّه؛ للقاء الملك نيكوميديس³ في بيثينيا⁴، وبعد أن مكث عنده بعض الوقت، وهو في طريق عودته بالقرب من جزيرة فارماكوزا⁵، وقع أسيراً بيد القراصنة الذين كانوا حينئذ يسيطرون على البحار بما لا يحصى عدده من السفن الصغيرة والمعدات العسكرية. ولما طلب القراصنة منه مبلغ عشرين

¹ De Souza, (1999), p. 65.

² Trimboli, (2016), p. 41.

³ نيكوميديس (Nicomedes): هو نيكوميديس الرابع، كان ملكاً بithynia عام 74 ق.م، وقد أوصى بمملكته لروما. Harnblower, Spawforth, (2012), p. 235.

⁴ بيثينيا (Pithynia): هي مملكة تقع في أقصى شمال غربي آسيا الصغرى. انظر الخريطة رقم (13).

⁵ فارماكوزا (Pharmacusa): واحدة من مجموعة جزر الدوديكانيز، في بحر إيجه. انظر الخريطة رقم (1).

تالنت¹ لقاء فديته، سخر منهم؛ لعدم معرفتهم بقيمة أسيرهم وعرض عليهم مبلغ خمسين تالنت². وبقي في وسط الكيليكين مع أحد رفاقه، في حين أرسل الباقيين لجمع المال من أجل الفدية...، وبعد أن وصل مبلغ الفدية من ميليتوس³ وأعطاه للقرصنة، وأطلقوا سراحه. فما كان منه إلا أن جهّز سفنه، وانطلق من ميناء ميليتوس لمعاقبة القرصنة، حيث قبض على معظمهم...، ثم أخذهم إلى برجاموم⁴ وصابهم جميعاً، تماماً كما توعدهم عندما كان معهم في الجزيرة وظنوا أنه يمازحهم⁵.

تثبتت هذه القصة وجهة نظر تريمبولي في أن إمكانية الأسير في دفع الفدية قد تحول بينه والموت، أو العبودية. ولكن في الوقت نفسه تكشف هذه القصة مقدار الخطر الذي قد يتعرض إليه القرصنة نتيجة التفكير في الحصول على الفدية أيضاً، بدلاً من بيع الأسرى في أسواق العبيد، وهو خيار قد لا يكون أكثر ربحاً للقرصنة، إلا أنه أكثر ضماناً من طلب الفدية.

¹ التالنت (Talent): هو وحدة لقياس الوزن، استعملته العديد من الحضارات القديمة، كالمصريين، والإغريق والرومان. حيث يعادل كل 1 تالنت 6000 دراهم، أي 25.86 كغ. بالمعيار الأتيكي.

للمزيد من المعلومات حول الأوزان القديمة، انظر: Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1572- 1573; <https://www.britannica.com/science/troy-weight>

² 50 تالنت أي ما يعادل 300000 درهما.

³ ميليتوس (Miletus): مدينة تقع على الساحل الغربي لآسيا الصغرى.

⁴ برجاموم (Pergamum): مملكة صغيرة في ميسيا، في آسيا الصغرى، تبعد نحو 24 كم. عن البحر الإيجي. وبعد وفاة ملكها أتالوس الثالث أوصى بها لروما عام 133 ق.م.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 202, 1108.

⁵ Plutarch, Caesar, 1- 2.

وقد كان القراصنة مدركين خطورة بقائهم وقتاً طويلاً في إجراء المفاوضات مع المخطوفين، أو أقربائهم، أو بلداتهم، ولذلك كانوا يفضلون إتمام ذاك الأمر بأسرع ما يمكن. وفي أحيان كثيرة كان افتداء المخطوفين لا يجري مع القراصنة مباشرة، وإنما مع الجهة التي تشتري أولئك الأسرى عبيداً؛ إذ تكون الفدية المدفوعة أكبر بكثير من سعر شرائهم¹.

ويمكن القول: إن ممارسات الخطف والفدية ليست منفصلة بحال من الأحوال عن تجارة العبيد، وإن تفضيل القراصنة لأيٍّ منهما يعود إلى عوامل عدة، كالربح الأعلى، أو البيع الأسهل والأكثر أماناً، أو أية عوامل أخرى قد تفرضها الظروف.

3- تجارة العبيد:

كانت الحروب سابقاً تشكل المصدر الرئيس للحصول على العبيد، إلا أنها لم تكن المصدر الوحيد لذلك؛ فقد كانت ممارسات الخطف التي يقوم بها القراصنة مصدراً لا يُستهان به لتجارة العبيد أيضاً، إذ كان القراصنة يؤدون دوراً بارزاً في اقتصاد العالم القديم بوصفهم تجاراً للعبيد². وبرأي سيستير أنهم كانوا مزودي أسواق العبيد بامتياز³.

وهذا يتفق مع الرأي القائل إن القراصنة "كان مرحّب بهم في الموانئ التجارية جميعها ما أن يظهروا محمّلين بالبضائع"⁴؛ أي إنه كان مرحّباً بهم ليس بصفاتهم قراصنة، وإنما تجاراً للعبيد.

¹ Lewis, (2019), p. 94- 95.

² Varenne, (2013), p. 97.

³ Sestier, (1880), p. 53.

⁴ Rostovtzeff, (1941), p. 196.

وهناك من الباحثين من يؤيد هذا الرأي أيضًا بقوله "يجب على من ينهب أن ينظم إعادة بيع السلعة لجني الربح، لذلك فإن من ظهر قرصناً في عيون الضحايا، يصبح تاجرًا في السوق. ففي العصور القديمة لم يكن يبدو أن هنالك تعارضاً بين التجارة والقرصنة، بل تربطهما شبكة من العلاقات المعقدة نسبياً"¹.

وقد كانت أكبر أسواق العبيد التجارية في حوض البحر المتوسط تقع في جزيرة ديلوس. وبحسب رواية استرابو كان القراصنة الكيليكيون يستغلون قربهم من تلك السوق؛ للتجارة بالعبيد على نحو واسع.

كان تصدير العبيد هو السبب الأساسي الذي حملهم على القيام بأعمال إجرامية، ذلك أن هذا العمل غير الشرعي كان يعود عليهم بأرباح طائلة، في وقت كان فيه الحصول على العبيد أمرًا يسيرًا. ولم تكن ديلوس بعيدة عنهم، إذ يوجد سوق كبير ونشط، قادر على الاستيعاب والتصرف، إذ كان يُباع في اليوم نفسه عشرة آلاف من العبيد. ومن هنا ظهر المثل القائل: أيها التاجر، ادخل الميناء، أفرغ حمولتك، فكل شيء يُباع!².

ولم يكن القراصنة الكيليكيون وحدهم المتورطين بتجارة العبيد؛ فقد كان الكريتيون منخرطين بهذا النوع من التجارة أيضًا، إلى جانب أعمال الخطف والفدية، وكان بينهم وبين القراصنة الأيتوليين تعاون مشترك في هذا المجال³.

¹ Varenne, (2013), p. 10, 45.

² Strabo, XII, V, 2.

³ Brulé, (1978). P. 11- 50.

وتجدر الإشارة إلى أن تجارة العبيد هي ممارسة مرتبطة على نحو محدد من أشكال القرصنة، وهو "القرصنة المنظمة"؛ إذ إن الهدف منها بطبيعة الحال هو تحقيق الربح المادي. وهنا يمكن مقارنة هذا الشكل من أشكال القرصنة مع نظرية "القرصنة التجارية" التي يطرحها فارن في ختام حديثه عن القرصنة وتجارة العبيد. التي تقول:

على عكس القرصنة الانتهازية التي يكون نشاط نهبها محدوداً،

تندمج القرصنة التجارية في الإطار الاقتصادي العقلاني، وتشارك

في مستويات دوائر التبادل في البحر المتوسط جميعها، من بناء

السفينة إلى تفريغ البضائع في السوق أو نقطة الإرساء....،

وتفترض وجود معرفة جيدة بالسواحل والعادات، فضلاً عن

الاتفاقيات والمعاهدات المختلفة المبرمة بين المواطنين والمدن

والممالك¹.

إذا أصبح من الواضح أن تجارة العبيد كانت إحدى أهم ممارسات القرصنة

قديمًا، وتحديدًا "القرصنة المنظمة"، التي كانت آخذة بالازدهار بالتزامن مع بسط

¹ يرى فارن من وجهة نظر "اقتصادية"، أن للقرصنة ثلاثة أشكال: 1-القرصنة الانتهازية: إذ يُمارس النهب هنا حسب الرغبة، مثل أن تكون سفينة قد تقطعت بها السبل على أحد السواحل، موضع نهب من قبل المجتمع المجاور، من دون احترام المعاهدات القائمة. وهذا ما يمكن مقاربته مع "القرصنة غير المنظمة (الفردية)". 2-القرصنة التجارية: 3-القرصنة المُتخيلة: وهي ليست قرصنة حقيقية، بل شكلٌ مُتخيل في الأذهان للقرصان في الأدبيات، بوصفها عنصرًا خارجًا عن الأخلاق، أو بطلًا رومانسيًا في الروايات، أو عدوًا سياسيًا في الخطاب السياسي، أو القانوني. هذا الشكل مختلف كليًا عن "القرصنة السياسية".

الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسّط، التي تراكمت بازدياد الطلب على العبيد، ومن ثمّ ازدياد نشاط القرصنة. وهذا بالضبط ما تحدّث عنه استرابو:

اكتسب الرومان قدرًا كبيرًا من الثراء بعد تدمير قرطاجة وكورنثة،
وأخذوا يوظّفون أعداداً هائلةً من عبيد المنازل، وهذا تسبّب في زيادة
هذ النشاط غير الشرعي. وقد أدرك القراصنة الوسيلة التي بها
يحصلون على العبيد، فتجمّعوا من كلّ حدب وصوب، لقطع الطرق
والاتجار بالعبيد¹.

¹ Strabo, XII, V, 2.

خامسًا: روما، والقرصنة السياسية:

بدايةً وقبل الدخول في صلب الموضوع؛ لا بدّ من الإشارة إلى أنّ القرصنة السياسية تحمل وجهين مختلفين من حيث الأسلوب، ولكنهما متفقان من حيث الغاية؛ أمّا الوجه الأول فهو أن يُمارس الأسطول النظامي لدولة ما القرصنة "مباشرةً" ضدّ أسطول أو سواحل الخصم، والوجه الثاني هو أن يُستخدم القراصنة "جنودًا مرتزقةً" في الحرب، وفي كلتا الحالتين تكون الغاية إضعاف قوّة العدو، وتحقيق مكاسب سياسية، وعسكرية بالدرجة الأولى.

وهكذا لم تقتصر ممارسات القراصنة على أعمال النهب، وابتزاز الأموال من التجار المسافرين عبر البحر، وكذلك أعمال الخطف، وطلب الفدية، أو الإتجار بالعبيد؛ بل إنهم أدّوا دورًا لا يُستهان به على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية، وكان لهم دور فاعل في كثير من الأحيان.

ولا يخلو تاريخ روما من مشاهد ممارسة القرصنة السياسية في حروبها مع خصومها. ويحسن تناول كل وجه من أوجه القرصنة السياسية على حدة، بهدف التمييز بينها، ومعرفة الجانب الذي كان له دور في تضخم ظاهرة القرصنة المترامين مع بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط.

1- القرصنة السياسية المباشرة:

يعدُّ هذا الشكل من النهب أحد التكتيكات العسكرية التي كانت تقومُ بها الجيوش، أو الدولُ ضدَّ بعضها بعضاً¹، ولمَّا كانَ هذا النهبُ يجري باستخدامِ السفنِ، فقد دخلَ اصطلاحاً ضمنَ مفهومِ القرصنة²، وأعتقدُ أنَّ هذا الوجهَ من القرصنة السياسية بالتحديد هو الذي دفعَ الباحثينَ للقولِ إنَّ القرصنة والحربَ قديماً كانتا تحملانِ السماتِ نفسها³.

وعلى أية حالٍ، واجهت روما في أثناء هيمنتها على حوض البحر المتوسط العديدَ من الحروبِ عبرَ البحرِ؛ التي بدأت بالاصطدامِ مع جارتها البحرية قرطاجة، وتبعَ ذلكَ سلسلةٌ من الحروبِ، عُرفت بالحروبِ البونية. ويذكرُ المؤرِّخُ الروماني تيتوس ليفيوس تعرُّضَ السفنِ الرومانية للنهبِ (القرصنة السياسية) من قرطاجة في أثناء الحربِ البونية الثانية، إذ يقولُ:

"تعرَّضت بعضُ السفنِ التي تحملُ إمداداتٍ للجيشِ المرابطِ في إسبانيا إلى النهبِ من الأسطولِ القرطاجي بالقربِ من ميناءِ كوزا"⁴5.

¹ يؤكد بيك أنَّ ممارسةَ النهبِ كانَ تكتيكاً عسكرياً مرافقاً للحروبِ، ومثالُ ذلكَ يقولُ: إنَّه في أثناء الحروبِ البونية مارسَ كلا الطرفين النهبَ على ممتلكاتِ بعضهم بعضاً. ويوضحُ كيفَ كانت قرطاجة تسمحُ لجنودها المرتزقةِ بالنهبِ حينَ تعجزُ عن دفعِ مستحقَّاتهم. وعن ذلكَ انظر:

Beek, (2015), p. 33- 73.

² راجع الفصل الثاني - مفهوم القرصنة.

³ De Souza, (1992), p. 106.

⁴ ميناء كوزا (Cosa): أحد موانئ روما على البحرِ التيراني.

⁵ Livy, 22, 11.

وقد كانت قرطاجة في الحربين البونيتين الأولى والثانية تستخدم أبراج الحراسة المنشرة على الساحل الإسباني، تلك الموجودة في جزر البليار؛ لمراقبة الأسطول الروماني، ولعمليات القرصنة ضده أيضاً.¹

ومع أن حكومة روما أدانت مثل هذه الأعمال بوصفها ممارسة مخالفة لعادات وتقاليد الحرب²، إلا أن روما نفسها نهبت السواحل القرطاجية، ولكن الروايات وصفها أنها حرب بحرية وليست قرصنة!³

وهذا الأمر يؤكد أن مفهوم القرصنة "في روايات المؤرخين القدماء" كان يُنظر إليه من وجهة نظر الجانب الأقوى أي روما، وهذا ما يُفسر من ثمّ عدم اتهام روما بممارسة القرصنة. وفي هذا السياق يقول فارن: "إنّ الانتصار هو ما يُضفي الشرعية على هذه الممارسة...، إذ تُظهر مصادرتنا الهجوم المشروع على أنه قرصنة، إذا ما تمّ من جانب الخصم"⁴.

ويروي بوليبيوس قصة تُجسّد صورة من صور القرصنة السياسية؛ ولكن هذه المرة ليست في أثناء الحرب، بل قبلها مباشرة⁵؛ إذ يتحدّث عن قتل قراصنة من اللورية أحد المبعوثين الرومان الذين أرسلتهم حكومة روما إلى اللورية؛ لاستنكار أعمال القرصنة التي كانت تجري ضدّ التجار الرومان. ويقول:

¹ Varenne, (2013), p. 112, 121; Reardon, (1997), p. 23- 24.

² Beek, (2015), p. 65.

³ Reardon, (1997), p. 13- 14.

⁴ Varenne, (2013), p. 10.

⁵ كان مقتل أحد المبعوثين الرومان ذريعة للتدخل الروماني في اللورية، والذي أفضى بالنتيجة إلى اندلاع الحرب بين البلدين. وسيتمّ تناول ذلك بشيء من التفصيل خلال الفصل الثالث.

عندما فاتح عددٌ من الأشخاص السناتو¹ بالمسألة، عَيّنوا مبعوثين، هما جايوس ولوكيوس كورنكاايوس، للتوجّه إلى اللورية والتحقيق في الأمر...، وفي أثناء الاجتماع شرع الوفد بالحديث عن الإساءة الموجهة بحق دولتهم، وفي أثناء حديثهم كانت الملكة تيوتا تُنصت بقدر كبير من الزهو والتكبر، ولما أنهى الوفد حديثه أجابت الملكة أنها ترى ما تعرّضت إليه روما ليس إلا خطأً فردياً، ولا ذنب لحكومة اللورية فيه، وأنه ليس من عادات ملوك اللورية منع رعاياهم من اكتساب الغنائم من البحر...، وبعد مغادرة المبعوثين إلى سفينتهم، أرسلت رجالاً؛ لقتل المبعوث الذي تحدّث إليها بفظاظة. وقد أثار وصول الأنباء إلى روما حالة من السخط والغضب، فأخذت تعدّ العدة لحملة عسكريّة وتجمع الأساطيل².

يحمل هذا المثال رسالةً سياسيّة واضحة لحكومة روما، مفادها أنّ اللورية ترفض رفضاً قاطعاً التدخل الروماني في منطقة البحر الأدرياتيكي، الذي يعدّ المجال الحيويّ لنشاط القراصنة الإلوريين. ويظهر كذلك تجذّر "مهنة" القرصنة في حياة وعادات تلك المنطقة.

إذن يمكن القول إنّ القرصنة السياسيّة "المباشرة" هي شكلٌ من أشكال العلاقات السياسيّة، والاستراتيجيّات العسكريّة التي كانت تتبّعها الدول قديماً. وأنّ إدراجها تحت

¹ السناتو (Senate): مجلس الشيوخ الروماني. وكان من صلاحيّاته النّظر في الشؤون الخارجيّة.

² Polybius, II, 8.

مُسَمَّى القرصنة ليس إلا من حيث الاصطلاح فحسب، أو من حيث تسمية المصادر القديمة لها، ومن ثم لم تكن ذلك النشاط الذي أدى مباشرة إلى تضخم ظاهرة القرصنة.

2-القرصنة المرتزقة:

كان استخدام القرصنة "مرتزقة" أمرًا شائعًا في الحروب في العالم القديم. وتذكر إحدى الدراسات التي أجريت عن دور القرصنة والمرتزقة في الحروب قديماً، العديد من الأمثلة عن دور القرصنة المرتزقة في الحروب في العالم الإغريقي، وكذلك في الصراعات بين الممالك الهلنستية، مُستندةً إلى المعلومات الوفيرة التي تقدّمها المصادر¹.

وقد شهدت روما كذلك حروباً عدّة، كان استخدام القرصنة المرتزقة فيها أمراً واضحاً. إذ يتحدّث بلوتارخ عن استخدام القرصنة الكيليكين "مرتزقة" من سرتوريوس² في أثناء ثورته ضدّ حكومة روما.

"هاجم جزيرة إيبيزا بعد انضمام عددٍ من سفن القرصنة الكيليكين إلى قوّاته...، وقد كان جُلّ همهم الحصول على الأسلاب والثروات"³.

¹ عن دور القرصنة المرتزقة في العالم الإغريقي والهلنستي انظر:

Beek, (2015), p. 11- 33.

² سرتوريوس (Sertorius): هو حاكم ولاية إسبانيا الدّانية، كان محبوباً من سكّانها، وكان معارضاً لسياسات سولا. وفي عام 80 ق.م قاد الثورة في إسبانيا ضدّ الحكم الروماني. وتغلّب على العديد من القوّات التي أرسلتها روما لمحاربته. حتّى تمكّن بومبيوس من القضاء عليه بعد معارك دامية عام 71 ق.م. نصحي، (1973)، ص 425-432.

³ Plutarch, Sertorius, 8.

ويقول نصحي إنَّ الصِّلةَ بينَ القراصنةِ وسرتوريوس تعودُ إلى علاقةِ التعاونِ بينهُ وبينَ مثریداتس السَّادس ملكِ بونتوس، الذي كانَ بدوره يوظِّفُ القراصنةَ لمهاجمةِ طرقِ مواصلاتِ روما¹.

يُصوِّرُ بلوتارخ كذلكَ القراصنةَ الكيليكين بمظهرِ القراصنةِ المرتزقةِ الذينَ يقدِّمونَ خدماتهم مقابلَ الحصولِ على المالِ والثَّراءِ؛ إذ يتحدَّثُ عن محاولةِ سبارتاكوس²؛ لتوظيفِ بعضِ القراصنةِ الكيليكين "مرتزقةً" لنقلِ قوَّاته إلى جزيرةِ صقلية، وخيانتهم له بعدَ الحصولِ على المالِ.

"صادفَ عندَ المضائقِ بعضَ سفنِ القراصنة، وكانَ عازماً على الاستيلاءِ على صقلية. وظنَّ أنَّه بنقلِ ألفي رجلٍ إلى الجزيرةِ سيتمكَّنُ من إحياءِ الثَّورةِ هناك...، ولكنَّ الكيليكين بعدَ أن اتفقوا معه وحصلوا على هديَّتهم، خدعوه وأبحروا هاربين"³.

وكانَ مثریداتس السَّادس أبرزَ خصومِ روما الذينَ كانوا على علاقةٍ وطيدةٍ معَ القراصنة، وبحسبِ روايةِ أبيان فإنَّ القراصنةَ قاموا بإنقاذه من الغرقِ بعدَ أن دُمِّرَتِ العواصفُ سفنهُ.

¹ نصحي، (1973)، ص 430.

² سبارتاكوس (Spartacus): هو عبْدٌ تراقيّ، تزعمُ ثورةُ العبيدِ المجالدينَ التي انطلقت من مدينةِ كابوا في كمبانيا جنوبِي إيطاليا سنة 73 ق.م، إذ اعتصمَ الثَّوارُ في منحدراتِ جبلِ فيزوف، وانضمَّ إليهم جمْعٌ غفيرٌ منَ العبيدِ الأبقين، وتمكَّنوا من هزيمةِ جيشينِ رومانيّين، إلى أن تمكَّنَ كراسوس بمساعدةِ بومبيوس من إخمادِ ثورتهم عام 71 ق.م. أحمد علي، (1988)، ص 115 - 117.

³ Plutarch, Crassus, 10.

"عندما كان مثريداتس في طريقه إلى بونتوس، هبت عاصفة أخرى،
وتعرّض عشرة آلاف رجلٍ وستون سفينة إلى الغرق، في حين حملت
الرياح السفن الباقية إلى مكانٍ مجهول. ولما غطبت سفينة
مثريداتس، صعد على متن سفينة قراصنة، حيث أفلته بأمان إلى
سينوب¹."

ويتحدث أبيان كذلك عن توظيف مثريداتس السادس القراصنة "مرتزقة" في
حربه ضد روما³.

"عندما دخل مثريداتس في المرة الأولى الحرب مع روما، واحتل
آسيا، كان واثقاً من أنه لن يتمكن من الاستحواذ عليها مدةً طويلةً،
فحاول نهبها بطريقةٍ أو بأخرى كما أسلفت، فأطلق القراصنة في
البحر. وقد أخذوا يضايقون الناس في الجوار بمراكبهم الصغيرة كما
هي عادة القراصنة. ولكن ما أن اندلعت الحرب حتى تضاعف
عددهم وصاروا يُبحرون بسفن كبيرة⁴."

¹ سينوب (Sinope): مدينة تقع على الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود.

² Appian, XII, 78.

³ الحرب (الأولى) ضد مثريداتس: اندلعت هذه الحرب عام 89 ق.م، بعد اجتياح مثريداتس السادس لكبادوكيا وولاية آسيا الرومانية، وقد أرسلت روما القائد العسكري الشهير سولا على رأس قواتٍ كبيرةٍ لمحاربة مثريداتس، إذ تمكن سولا من هزيمته عام 85 ق.م وأجبره على التسليم بموجب "صلح دردانوس". أحمد علي، (1988)، ص. 73-77.

⁴ Appian, XII, 92.

وهكذا أصبح من الواضح أنّ استخدام القراصنة مرتزقةً في الحروب والصراعات كان أحد الأسباب المهمّة وراء تضخّم ظاهرة القرصنة، وبلوغها مرحلةً خطيرةً ومؤثّرةً في مسرح السياسة الدوليّة.

وبالعودة للسؤال الذي طرح مسبقاً عن "العوامل التي أدت إلى تضخّم ظاهرة القرصنة على نحوٍ متزايدٍ، ومتزامنٍ مع بسط الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط، بين منتصف القرن الثالث ومنتصف القرن الأول قبل الميلاد"، يمكن القولُ بناءً على النتائج التي وصلت إليها دراسة الفصل الثّاني:

إنّ حالة الحرب التي رافقت بسط الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط هي أكبر العوامل التي أدت إلى تضخّم ظاهرة القرصنة بأشكالها وممارساتها المختلفة، وذلك لأسباب عدّة:

أ- أوجدت الحرب بيئةً ملائمةً جداً لنموّ ظاهرة القرصنة، نتيجة الفوضى وغياب الأمن.

ب- أدّى استخدام القراصنة بوصفهم جنوداً مرتزقةً في الحرب إلى تعاظم قوّتهم، وإتاحة الفرصة المناسبة أمامهم؛ لممارسة نشاطهم.

ت- دفعت الحرب بعض الشخصيات البارزة (سكستوس بومبيوس، وتريفون) إلى تنظيم القراصنة، واستخدامهم بوصفهم قوّةً عسكريّةً كبيرةً.

ث- أدّت الحروب المستمرّة إلى حالةٍ من الارتباك الاقتصادي، الذي أفضى بدوره إلى تحوّل بعض الأفراد لممارسة "مهنة القرصنة"، بدلاً من الأعمال الشرعيّة.

إنّ ازدهار تجارة العبيد، ووجود أسواقٍ قادرةٍ على تصريف كمّياتٍ كبيرةٍ منهم، وازدياد الطلبِ عليهم ولا سيما في روما، شجّع القرصنة على ممارسة هذه التجارة المربحة على نحوٍ مضطرد.

وبهذا الشكل تضخّمت ظاهرة القرصنة على نحوٍ مضطردٍ، وبالتزامن مع بسط الهيمنة الرومانيّة على حوض البحر المتوسط، وهذا ما تطلّب من روما التي غدت سيّدة حوض البحر المتوسط "MARE NOSTRUM"¹ اتّخاذ تدابيرٍ جادّةٍ وصارمةٍ؛ لقمع هذه الظاهرة، وإرساء أسس الأمن والأمان.



¹ أطلق الرومانُ تسمية "بحرنا" على البحر المتوسط، كدلالةٍ على هيمنتهم على كامل حوض هذا البحر.

الفصل الثالث:

حملات روما العسكريّة ضدّ القرصنة.

- ❖ أولاً: الحرب ضدّ اللورية.
- ❖ ثانياً: الحرب ضدّ ليغوريا.
- ❖ ثالثاً: الحملة العسكريّة على جزر البليار 123 ق.م.
- ❖ رابعاً: احتلال مالطا.
- ❖ خامساً: الحرب ضدّ القراصنة في كيليكية.
- ❖ سادساً: الحرب على كريت.
- ❖ سابعاً: حملة بومبيوس ماغنوس ضدّ القراصنة.
- ❖ ثامناً: انتهاء خطر القراصنة.

تمهيد:

لم تولِ حكومة روما جهدًا في محاربة القراصنة، وإرسال الحملات العسكرية للقضاء عليهم. فقد كانت القرصنة في نظر قدماء الرومان عملاً غير شرعي وجريمةً تعاقب عليها القوانين¹، إذ يطلق شيشرون على القراصنة لقب أعداء الشعب الروماني "HOSTIS POPULI ROMANI"².

وقد أدت القرصنة دورًا بارزًا لا يُستهان به على مسرح السياسة الدولية، في مرحلة بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، ولم تقتصر على أنها عمل خارج القانون؛ بل كانت أداةً سياسيةً فاعلةً في العلاقات، والحروب بين الدول أيضًا.

وبناءً على ما وفّرت المصادر الأدبية من معلومات عن الحملات العسكرية التي قامت بها روما ضدّ معاقل القرصنة، فقد حُدّدت تلك المعاقل، ودُرست من الناحية الجغرافية³. وستُدرُس في هذا الفصل الحملات العسكرية، وأبعادها السياسية، على خلفية سياسة روما التوسعية في حوض البحر المتوسط⁴.

¹ انظر: الفصل الثاني، مفهوم القرصنة.

² Cicero, II Verr, 87.

³ انظر: الفصل الأول، معاقل القرصنة في حوض البحر المتوسط.

⁴ إنَّ تحديد معاقل القرصنة في تلك الأماكن، لا يعني أنَّها تشمل جميع أوكار القرصنة في حوض البحر المتوسط؛ بل أنَّها تشمل فقط الأماكن التي قامت روما بإرسال حملات عسكرية مباشرةً ضدها، وذكرتها المصادر الأدبية.

أولاً: الحرب ضدّ اللوريّة:

أدت البيئة الجغرافيّة لمنطقة اللوريّة دوراً كبيراً في ميل السّكان إلى امتهان القرصنة البحريّة بدلاً من العمل في الزراعة وتربية الحيوان¹. فقد ذاع صيت القبائل الإلّورية منذ القديم في ممارسة مهنة القرصنة، إلى درجة أنّ نوع السفن التي كانوا يستعملونها أصبحت النمط التقليديّ لسفن القراصنة².

ونحو منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، تمكّن الملك أجرون من توحيد القبائل في منطقة الأديراتيكيّ تحت زعامته باسم مملكة اللوريّة، واتخذت تلك المملكة من ممارسة القرصنة مورداً أساسياً لدعم اقتصادها³، ومن ثمّ أصبحت اللوريّة من أكبر معاقل القرصنة في حوض البحر المتوسط.

وهكذا أخذ القراصنة الإلّوريون يُمارسون نشاطهم في منطقة البحر الأديراتيكيّ، ويغيرون على السواحل والموانئ التجاريّة⁴، مستغلين انشغال روما في حربها ضدّ قرطاجة، وحالة الفراغ الأمنيّ الناجمة عن تلك الحرب⁵.

وما أن فرغت روما من حربها الأولى مع قرطاجة (264-241 ق.م)، حتّى التفتت شرقاً لحماية مصالحها التجاريّة في منطقة البحر الأديراتيكيّ⁶. وعلى إثر تكرار الشكاوى من خطر القراصنة الإلّوريين، بادر السناتو الرومانيّ إلى إرسال وفد

¹ انظر: الفصل الأول، معاقل القرصنة، اللورية.

² Pitassi, (2012), p. 51; Trimboli, (2016), p. 27.

³ Bradford, (2007), p. 35; Dzino, (2005), p. 4.

⁴ De Souza, (1992), 203- 206; Erskine, (2005), p. 51.

⁵ راجع التمهيد العالم للرسالة.

⁶ Willoughby, (2018), p. 62- 63.

دبلوماسي إلى اللورية؛ للتديد بأعمال القرصنة التي كانت تجري بحق التجار الرومان¹.

وقد روى بوليبيوس تفاصيل التقاء الوفد الروماني بالملكة تيوتا (230 - 228

ق.م) التي كانت قد تولت مقاليد الحكم بعد وفاة زوجها الملك أجرون، وكيف أشعلت تلك الزيارة شرارة الحرب بين روما واللورية².

1- الحرب الإلورية الأولى 229-228 ق.م:

كان ردّ الملكة تيوتا، وقتل المبعوث الروماني شرارة الحرب بين البلدين، إلا أنه لم يكن السبب الحقيقي لاندلاع الحرب؛ فقد كانت روما تسعى إلى حماية مصالحها التجارية في منطقة البحر الأدرياتيكي ومضيق أوترانتو، وطرق التجارة مع الشرق³. وهذا ما دفعها إلى توجيه حملة عسكرية ضدّ مملكة اللورية، تحت ستار "محاربة القرصنة".

تختلف رواية بوليبيوس لهذه الحرب عن رواية أبيان، الذي يرجع بدوره حادثة قتل المبعوث الروماني إلى أيام الملك أجرون، ويتجاهل دور الملكة تيوتا، وهو على العكس من بوليبيوس لا يتناول تفاصيل الحرب؛ بل يقتصر في روايته على الأحداث

¹ De Souza, (1992), p. 203- 206.

² راجع الصفحة رقم (69).

³ Willoughby, (2018), p. 58.

الأساسية فيها¹. لذلك يُفضّل الاعتمادُ على رواية بوليبيوس بوصفها المصدر الأول والأساسي والمفصل لتلك الأحداث.

ويتابع بوليبيوس سرد الوقائع بعدَ حادثة مقتل المبعوث الروماني باستيلاء الملكة تيوتا على كوركيرا² وتنصيب ديميتريوس الفاروسي³ حاكمًا عليها، ثمَّ التوجّه بقواتها لمحاصرة إبيدامنوس⁴، وفي تلك الأثناء كان القنصل الروماني اجنايوس فلافيوس قد أبحر بأسطوله المؤلف من 200 سفينة باتجاه كوركيرا، وتمكّن من دخولها، وبسط الحماية الرومانية عليها بعدَ الاتفاق مع ديميتريوس الذي قرّر الدخول في خدمة الرومان⁵.

ومن ثمَّ توجّه فلافيوس إلى أبولونيا؛ للالتقاء بجيش القنصل الثاني أولوس بوستوميوس، الذي كان قد وصل بقواته البرية البالغ عددها 20 ألفاً من المشاة و 2000 من الفرسان، وتمكّنًا معًا من رفع الحصار عن أبيدامنوس والتوغّل داخلًا في الأراضي الإلورية، حيثُ أعلنت العديد من القبائل خضوعها لهم، وكذلك دانت لهم مدن الساحل جميعها. أمّا الملكة تيوتا فقد لجأت إلى الاختباء في أحد الحصون الداخلية، ولمّا أدركت عجزها عن مواجهة الرومان، بادرت إلى التفاوض معهم والموافقة على شروطهم جميعها⁶.

¹ Appian, X, II,7.

² كوركيرا (Korkyra): مدينة يونانية، تقع في جزيرة كورفو على البحر الأيوني.

³ ديميتريوس الفاروسي (Demetrius of Pharos): هو حاكم مدينة فاروس، اشترك في الحرب الإلورية الأولى، وأصبح حاكمًا عميلًا لروما لمعظم ساحل إلورية. Hammond, (1994), p. 257.

⁴ إبيدامنوس (Epidamnus): مدينة إغريقية، تقع على سواحل ألبانيا.

⁵ Polybius, II, 9-11.

⁶ Polybius, II, 11.

وقد تضمنت تلك الشروط تنازل الملكة عن معظم الأراضي الإلورية والإغريقية التي استولت عليها، وتعهدت بدفع نفقات الحرب للرومان، وكذلك الامتناع عن الإبحار لأبعد من ليسوس¹ بسفينتين غير مسلحتين، ومن ثم جرى تنصيب دمتريوس الفاروسي حاكماً على إلورية بصفته حليفاً وصديقاً للشعب الروماني².

2- الحرب الإلورية الثانية 219 - 218 ق.م:

كانت نتائج الحرب الأولى ضد إلورية مرضية لروما في البداية؛ فقد تمكنت على إثرها من تأمين طرق التجارة مع الشرق، التي تشكل عصب الحياة لروما، ووضعت على رأس السلطة في إلورية ملكاً حليفاً وتابعاً لها، وهذا يضمن سلامة مصالحها التجارية في تلك المنطقة.

ولكن دمتريوس لم يكن ذلك الحليف الوفي لمصالح روما؛ فقد أخذ يسعى بدايةً إلى توطيد حكمه، ومنحه صفةً شرعيةً، وذلك بالزواج من تريتيوتا الزوجة الثانية للملك أجرون وأُم ولده بينيس. واستغل دمتريوس فرصة انشغال روما في حربها مع القبائل الكلتيّة³ في وادي البو شمالي إيطاليا في المدة بين (225 - 222 ق.م) للإبحار لما بعد ليسوس جنوباً وممارسة القرصنة، خلافاً لمعاهدة عام 228 ق.م⁴.

¹ ليسوس (Lissus): مدينة تقع في ألبانيا اليوم.

² Polybius, II, 12.

³ الكلت (Celts): هاجرت قبائل الكلت من حوض الدانوب شمالاً، ونزلت في سهل وادي البو شمالي إيطاليا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد. وفي عام 225 ق.م أغار الكلت على مقاطعة إتروريا في شمالي إيطاليا ما أجبر روما على خوض معركة كبيرة ضدهم عند تيلامون. نصحي، (1978)، ص. 266.

⁴ Appian, X, II, 8; Wilkes, (1992), p.162- 163.

وبحسب رواية بوليبيوس فإن أكثر ما أثار مخاوف الرومان هو حدوث التقارب بين دمتريوس وبين أنتيجونوس¹ ملك مقدونيا، وتقويض دمتريوس سلطة المدن الإلورية التابعة لروما. وفي وقت كانت فيه بوادر الحرب مع قرطاجة قد غدت على الأبواب².

وهكذا وجدت روما نفسها مضطرة للقيام بحملة عسكرية ضد الإلورية بذريعة نقض دمتريوس لمعاهدة عام 228 ق.م، وتحت ستار محاربة القرصنة³. ولكن السبب الحقيقي وراء هذه الحرب كان فضلاً عن تأمين طرق التجارة مع الشرق، ضمان أمن روما من الناحية العسكرية بتأمين جبهتها الشرقية قبل الدخول في حربها المحتملة مع قرطاجة.

ويروي بوليبيوس تفاصيل هذه الحرب التي لا تختلف كثيراً في جوهرها عن الحرب الأولى ضد تيوتا سوى في أن دمتريوس كان أكثر استعداداً لخوض المعركة؛ فقد خلع حكام المدن الموالية لروما، وأبدلهم بحكام موالين له، وأرسل حامية عسكرية

¹ أنتيجونوس الثالث دوسون (Antigonos III Doson): هو ملك مقدونيا ما بين عامي (229 - 221 ق.م)، تميز بعلاقاته الدبلوماسية مع دول الجوار.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 102.

² Polybius, III, 16- 18.

³ تظهر عند أبيان إشارة واضحة إلى أن الحرب على الإلورية جاءت تحت مسمى القضاء على القرصنة، وهذا ما أعطى الشرعية لمثل تلك الحملات العسكرية. Appian, X, II, 8. وهذا ما لا يختلف عن سياسات الولايات المتحدة اليوم في شن حملاتها العسكرية تحت مسمى محاربة الإرهاب، أو نزع السلاح النووي، وما إلى ذلك. وبهدف تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية.

كبيرة إلى مدينة ديمالي¹، في حين اختار هو ستة آلاف من أفضل محاربيه، وتحصّن في مدينة فاروس².

وصل الجيش الروماني إلى اللورية بقيادة القنصل إميلوس باولوس، فوجد قوات دمتريوس متحصنة في مدينة ديمالي، التي إذا ما استطاع السيطرة عليها ستصبح المدن والبلدات الأخرى جميعها في متناول يديه. وبالفعل أعطى إميلوس الأوامر لقواته بضرب الحصار على المدينة، وفي غضون سبعة أيام كانت ديمالي تحت سيطرته، وهذا أثار الرعب في المدن الباقية، فسارع حكامها للاستسلام وتقديم فروض الطاعة للرومان.

بعد ذلك توجه إميلوس إلى مهاجمة دمتريوس المتحصن في جزيرة فاروس، وهو يعلم بقرارة نفسه أن حصار فاروس سيكلفه كثيراً من الوقت، فخطرت له خطة تقوم على استدراج دمتريوس؛ للخروج من وراء تحصيناته، ومن ثمّ يصبح القضاء عليه أكثر سهولة.

اقتضت خطة إميلوس الإبحار إلى الجزيرة ليلاً حيث أنزل معظم قواته في منطقة مغطاة بالغابات، ومع طلوع الفجر ظهر قبالة الشاطئ بعشرين سفينة فقط، وهذا خدع دمتريوس الذي خرج بمعظم قواته لمنع السفن من الرسو على الشاطئ، ظناً منه أنه سيتفادى الحصار الطويل على مدينته.

¹ ديمالي (Dimale): مدينة في جنوبي اللورية (ألبانيا اليوم).

² Polybius, III,18.

فاروس (Varos): مدينة في جزيرة فاروس، قبالة شاطئ دلماشيا، شمالي البحر الأدرياتيكي.

وما أن دخل دمتريوس في الاشتباكات مع سفن الأسطول الروماني، حتّى خرجت القوّات البريّة من بين الأشجار على المنحدر وقطعت الطريق على دمتريوس من العودة إلى مدينته، ولمّا وجد نفسه قد وقع في فخّ الرومان ولم تعد له فرصة للانتصار، سارع بالفرار إلى ملك مقدونيا تاركاً جنوده فريسة سهلة للجيش الروماني.

بعد ذلك دمر إيميليوس التحصينات في مدينة فاروس، ونصب بينيس ملكاً على إلورية، كما عزز المكاسب التي حقّقها الرومان في الحرب الأولى قبل عشرة أعوام، فضلاً عن تأمين الجبهة الشرقيّة لروما قبيل اندلاع الحرب مع قرطاجة¹.

3- الحرب الإلوريّة الثالثة 169 - 168 ق.م:

نجحت روما في أعقاب الحرب الثانية مع إلورية من تأمين جبهتها الشرقيّة؛ وذلك بوساطة وضع حاميات عسكريّة في عدد من المدن الإلورية. ومع استمرار نشاط القراصنة الإلوريين، إلا أنّ روما تغاضت عن ذلك ما دام ملوك إلورية باقين على ولائهم لها².

ولكن في عام 169 ق.م، وفي أثناء اشتباك روما في الحرب المقدونيّة الثالثة (170 - 168 ق.م)، حصل تقارب بين جنثيوس ملك إلورية، و برسيوس ملك مقدونيا. وبحسب رواية ليفيوس³ فقد اتفق الطرفان على إنشاء تحالف مشترك بينهما

¹ Polybius, III,18.

² عن العلاقات بين روما وإلورية في تلك المدّة، انظر: Wilkes, (1992), p.170- 173.

³ جرى الاعتماد على رواية المؤرخ الروماني تيتوس ليفيوس، نظراً إلى ضياع الكتاب رقم 29 لبوليبيوس، إذ كان ليفيوس قد كتب مؤلفه بالاعتماد على المعلومات التي استقاها من بوليبيوس، وغيره من المؤرخين.

ضدّ روما، وتمكّن برسيوس من إقناع رودوس التي كانت حليفة روما بالانضمام لهذا التحالف أيضًا¹.

وهكذا وجدت روما الفرصة مناسبة أمامها؛ لتوجيه حملة عسكرية؛ للقضاء على القراصنة الإلوريين المتحالفين مع عدوّها اللدود، أي مقدونيا. وقد كانت قيادة العمليات العسكرية في إلورية بيد البرايثور أنكيوس جالوس الذي كان مرابطاً في أبولونيا عندما وصله خبر تمرد جنثيوس، ومهاجمته مدينة بسانيا².

ويبدو أنّ جنثيوس عندما وجد نفسه عاجزاً عن الاستيلاء على المدن الإلورية الموالية لروما، قرّر التراجع إلى معقله الحصين في مدينة سكودرا على أمل وصول امدادات عسكرية له من أخيه، ولكن القوات الرومانية قد حالت دون ذلك، وفي ثلاثة أيام استسلم جنثيوس للرومان، إذ تمكّنوا من القبض على زوجته وأولاده أيضًا، وبذلك يكون جنثيوس آخر الملوك الذين حكموا إلورية³.

وبقرار ذكي من السنانو الروماني، مُنحت مدن إلورية حريتها على أن تدفع لروما نصف مقدار الضرائب التي كانت تدفعها لملك إلورية. وقُسمت المنطقة إلى ثلاث مناطق إدارية مستقلة بعضها عن بعض، وبذلك تكون روما قد بسطت هيمنتها الفعلية على معظم أراضي المملكة الإلورية، بوصفها خطوة أولى في طريق الهيمنة على الشرق⁴.

¹ Livy, 44, 23.

² Livy, 44, 30.

³ Livy, 44, 31.

⁴ Livy, 45, 26.

ثانيًا: الحرب ضدّ ليغوريا:

لم يكن الليغوريون منّ المرحبين بوجود جيرانهم الأقوياء في روما، ما دفعهم إلى تقديم أشكال المساعدة جميعها لقرطاجة في أثناء الحرب البونية الثانية (218-202 ق.م) ضدّ روما¹. ويبدأ المؤرّخ الروماني تيتوس ليفيوس كتابه التاسع والثلاثين بعبارة توحى بمقدار العداوة بين روما وبين ليغوريا إذ يقول:

يبدو وكأنّ ليغوريا العدو الذي وُلد؛ ليبقي على مستوى الانضباط العسكري للرومان بأعلى مستوى في الآونة ما بين أهمّ حروبها، فلم يعمل أيّ ميدان آخر للمعارك ما فعلته ليغوريا في بناء شجاعة الجنود.

ويفسّر ليفيوس ذلك بسبب طبيعة ليغوريا الصعبة التي جعلت من سكّانها محاربين أشداء، وشكّلت حصناً منيعاً أمام كلّ من يفكّر بغزوها². وبحسب دراسة أجريت للعلاقات بين ليغوريا وروما في المدّة بين 200 - 172 ق.م. فقد تبين وجود صدامات عسكرية سنوية بين القوّات الرومانية والقبائل الليغورية³.

ويُرجع استرابو سبب تلك الصّدامات العسكريّة التي استمرّت على حدّ قوله ثمانين عام، أي إلى عشرينات القرن الثاني قبل الميلاد، إلى قطع القرصنة الليغوريين طرق العبور الرومانيّة باتجاه إسبانيا.

¹ Ormerod, (1924), p. 163.

² Livy, 39,1.

³ Eric, (2010), p.25- 125.

أغلق الليغوريون أمام الرومان كلّ الطرق المؤدية إلى إيبيريا على طول الساحل، واعتمدوا أسلوب السطو في كلّ من البر والبحر، فازدادت قوتهم لدرجة أرهبت الجيوش الكبيرة من العبور. وبعد حرب دامت ثمانين عامًا تمكّن الرومان من اكتساب مسافة 12 استاديا¹ بغرض إنشاء طريق عام. وعلى أية حال، بعد ذلك أخضعهم الرومان جميعًا، وأنشؤوا فيما بينهم شكلًا منظمًا من الحكم².

وقد توصلت إحدى الدراسات التي تناولت الحملات العسكرية في منطقة الريفيرا والرون أنّ ليغوريا لم تخضع إلى السيادة الرومانية التامة إلا على يد يوليوس قيصر في أثناء حملته العسكرية الضخمة في بلاد الغال (58-51 ق.م)³. وبذلك تكون السيطرة على ليغوريا قد استغرقت قرابة قرنين من الزمن، ما يعني أنّ روما لم تكن مهتمة في إضاعة الوقت والإمكانات في احتلال بلد فقير مثل ليغوريا.

ويعدّ ليفيوس المصدر الأساسي للمعلومات عن الحملات الرومانية في منطقة ليغوريا، وهي معلومات متفرقة وغير مفصلة، ومن الصعب الاعتماد عليها في تشكيل صورة واضحة للأحداث في تلك المنطقة⁴. وقد حاول أحد الباحثين ترتيب تلك الحملات بناءً على إحدى الوثائق التي تناولت أسماء القادة الذين حققوا انتصارات

¹ استاديا (Stadia): هي كلمة يونانية، تُستخدم؛ لوصف معبرٍ أو مساحة مسطحة من الأرض. كلّ استاديا تساوي 200 م.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1395.

² Strabo, IV, VI, 3.

³ توصلت هذه الدراسة إلى نتيجة مفادها أنّ الحرب في ليغوريا استمرت سنوًا طويلة، وأنّ هذه المنطقة لم تخضع للسيادة الرومانية التامة حتّى حملة قيصر. عن ذلك انظر:

Hall, (1898), p. 86- 108.

⁴ Livy, 39- 45

عسكريّة وألقابهم، ويذهب للقول: إنّ معظم أولئك القادة كانوا يسعون إلى تحقيق الأمجاد العسكريّة في ليغوريا¹.

على أيّة حال، بالنظر إلى الأوضاع السياسيّة التي كانت تعيشها روما في القرن الثاني ومعظم القرن الأول قبل الميلاد، وطبيعة منطقة ليغوريا الفقيرة بالموارد الاقتصاديّة التي تحتاج إليها روما لبناء إمبراطوريتها²، يمكن القول: إنّ أولويّة روما لم تكن السيطرة على ليغوريا، وإنّما تأمين طرق التجارة في الحوض الغربي للمتوسط، وباتجاه إسبانيا، وذلك تحت مسمّى القضاء على القرصنة وقطّاع الطرق، والحملّة الرومانيّة ضدّ القرصنة في جزر البليار عام 123 ق.م تدعم صحة مثل هذا الافتراض.

¹ Beek, (2015), p. 90- 92.

² راجع التمهيد، والفصل الأول.

ثالثاً: الحملة العسكرية على جزر البليار 123 ق.م:

اتّخذت روما من نشاط القراصنة ذريعةً؛ للتدخل العسكري في جزر البليار، وتؤكد إحدى الدراسات أن الحملة العسكرية التي أرسلتها روما؛ لاحتلال جزر البليار كانت تهدف إلى تأمين الطريق الملاحي إلى شواطئ إسبانيا¹، ما يعني أن روما استخدمت ذات الاستراتيجية التي طبقتها لاحتلال اللورية، وهي اتخاذ محاربة القراصنة غطاءً؛ لتنفيذ مصالحها الاقتصادية والاستعمارية².

يروى فلوروس قليلاً من المعلومات عن هذه الحملة تحت عنوان "الحرب البليارية" وتكاد رواية فلوروس أن تكون المصدر الوحيد المتبقي عن هذه الحرب إلى جانب الإشارة إليها إشارة موجزة من استرابو.

ويظهر أن الأسطول الروماني كان قد انطلق من شواطئ إسبانيا بقيادة القنصل متيللوس عام 123 ق.م، الذي حمل لقب بلياريكوس على إثر انتصاره في هذه الحملة³. وبحسب وصف فلوروس فإن سكان البليار لم يكن لديهم أي خبرة بأساليب القتال، وهذا ما يثير الشك في حقيقة أن السكان أنفسهم من القراصنة، ويرجح فرضية استخدام جزر البليار من القراصنة المختلفين؛ بوصفها نقطة مهاجمة للسفن المارة من تلك المنطقة⁴.

¹ Ormerod, (1924), p. 166.

² يتفق فارن مع الافتراض القائل: بأن روما اتخذت من محاربة القرصنة مبرراً لاحتلال جزر البليار، وأيضاً لاحتلال اللورية وكيليكية.

Varenne, (2013), p. 26.

³ Beek, (2015), p. 94.

⁴ راجع الفصل الأول - أرخبيل البليار.

عندما شاهدوا الأسطولَ الرومانيّ يقتربُ من عمقِ البحر، ظنّوا أنّه
فريسةٌ سهلة، فتجرّأوا على مهاجمتهِ بوابلٍ من الحجارة والصخور...،
ولكن عندما اقترب القتال، واختبروا قوّة سفننا ورماحنا، فرّوا كقطيعٍ
من الأغنام وتفرّقوا بين التلال المجاورة للساحل، وهُزموا¹.

ولا يختلف وصفُ استرابو في تصويرِ ضعفِ القرصنة في تلك المنطقة وقلةِ
خبرتهم العسكريّة عن وصفِ فلوروس، ويضيفُ أنّ متيللوس قد جلبَ 3000 مستوطنٍ
رومانيّ من إسبانيا بغرضِ الاستقرارِ في جزرِ البليار². ويُعتقَدُ أنّ متيللوس قد أسّسَ
مدينتا بالما وبولينتيا لتوطين أولئك الجنود المستعمرين³.

وهكذا فإنّ الحملة العسكريّة على جزرِ البليار توضحُ حقيقةَ نوايا روما
الاستعماريّة في غربِ البحر المتوسط، وتوكّدُ رغبتها بدوامِ تأمينِ طرقِ التجارة باتجاهِ
إسبانيا، ولا سيما بعدَ الجهودِ التي بذلتها في ليغوريا لتأمينِ العبورِ الآمنِ في الحوضِ
الغربيّ للمتوسط.

¹ Florus, I, XLIII, 8.

² Strabo, III, V, 1.

³ Ormerod, (1924), p. 166.

رابعاً: احتلال مالطا:

كانت جزيرة مالطا من الجزر التابعة لقرطاجة قبل بداية الحرب البونية الثانية (218-202 ق.م)، وكانت روما قد حاولت السيطرة على تلك الجزيرة في أثناء الحرب البونية الأولى (149-146 ق.م)، حين تمكّن القنصل جايوس ريجوللوس عام 257 ق.م. من الاستيلاء على مالطا بهدف فصل القوّات القرطاجية في صقلية عن خطوط إمدادها، إلا أنّ قرطاجة ما لبثت أن استعادتتها في عام 255 ق.م.¹

ولا شك أنّ مالطا كانت تشكّل خطّ هجوم متقدّم بالنسبة إلى قرطاجة، يمكّنها من الإغارة على الأساطيل الرومانيّة ونهبها "كشكل من أشكال القرصنة السياسيّة"، ما يعني أنّ روما إذا ما أرادت تأمين سلامة أساطيلها، وبسط هيمنتها على الحوض الغربي للمتوسط، فلا بدّ لها من الاستيلاء على مالطا، ولا سيما بعد أن نجحت قبل ذلك بالاستيلاء على صقلية وسردينيا وكورسيكا.²

ومع بداية الحرب البونية الثانية عام 218 ق.م، أرسلت روما القنصل سيمبرونيوس للاستيلاء على مالطا التي كانت آخر معقل متقدّم لقرطاجة في البحر، إذ تمكّن من طرد الحامية القرطاجية الموجودة في الجزيرة، وأصبحت مالطا منذ ذلك الوقت تابعة لولاية صقلية الرومانيّة.³

يغيّب ذكر مالطا بعد ذلك من المصادر القديمة طيلة القرن الثاني قبل الميلاد، إلى أن يعود شيشرون في نحو عام 70 ق.م إلى الإشارة إلى وجود القرصنة في

¹ Castillo, (1958), p. 21- 23.

² حول الاستيلاء على الجزر، وتحويلها إلى ولايتين رومانيّتين انظر: نصحي، (1978)، ص 348-349.

³ Castillo, (1958), p. 24.

الجزيرة في خطابه ضد فيرييس. ومن المرجح أن القرصنة في مالطا أخذت بالازدهار في تلك المدة في ظل الفراغ الأمني الحاصل في البحر المتوسط، وبدعم أو على أقل تقدير بتغاضٍ من حكام صقلية الذين جمعتهم بعض المصالح مع زعماء القراصنة. ويُستدل على صحة هذا الافتراض من رواية شيشرون، التي يذكر فيها أن مالطا كانت معقلاً يستخدمه القراصنة؛ لقضاء فصل الشتاء.

جرى إرسال مبعوثين من السلطات العامة في مالطا؛ للإبلاغ عن نهب ضريح جونو، إذ لم يدع ذلك الرجل شيئاً في ذلك المعبد الأكثر قداسةً. ذلك المكان "مالطا" الذي غالباً ما كانت تأتي منه أساطيل أعدائنا، حيث اعتاد القراصنة قضاء الشتاء عاماً بعد عام. ولم يسبق لأيٍّ منهم أن انتهك حرمة المعبد، أو لأيّ عدو أن هاجمه من قبل، إلا أن هذا الرجل بمفرده قد نهبه ولم يترك فيه شيئاً¹.

وبحسب رواية شيشرون، فإنه من غير المستبعد وجود علاقة تجمع القراصنة بسكان الجزيرة الذين وفروا بدورهم وكرّاً للقراصنة، وسوقاً؛ لتصريف البضائع والعبيد، مقابل تعهد القراصنة بعدم المساس بممتلكات الجزيرة².

ونظراً إلى أن مالطا كانت من بين أملاك الجمهورية الرومانية منذ مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، فإن استمرار وجود القرصنة فيها يعدّ مؤشراً قوياً على تورط عدد من الحكام الرومان مع القراصنة في التجارة "غير الشرعية". ويؤكد صحة هذا

¹ Cicero, verr, IV, 48.

² راجع الفصل الأول - أرخبيل مالطا.

الافتراض ما جاء في خطاب شيشرون ضدّ فيريس، الذي اتّهمه فيه بالتواطؤ مع أحد زعماء القراصنة، وإطلاق سراحه بدلاً من تنفيذ حكم الإعدام به¹.

خامساً: الحرب ضدّ القراصنة في كيليكية:

أدت البيئة الجغرافيّة لمنطقة كيليكية دوراً أساسياً في ميل سكّانها إلى ممارسة القرصنة، شأنها في ذلك شأن العديد من مناطق حوض البحر المتوسط التي ظهرت فيها القرصنة بالتوازي مع ظهور الملاحة البحريّة². ولكنّ كيليكية لم تظهر على مسرح السياسة الدوليّة معقلاً للقراصنة إلا نحو منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، حين بدأت تذكرها العديد من المصادر الأدبيّة ذات الصلة بالتاريخ الرومانيّ.

فبحسب وصف استرابو جرى تنظيم القراصنة في منطقة كيليكية على يد أحد الأمراء السلوقيين المنافسين على سدّة الحكم في سورية، ويُدعى ديودوتس تريفون، إذ لجأ إلى تنظيم القراصنة في كيليكية؛ للاستفادة منهم في الوصول إلى العرش السلوقي³.

ويبدو أنّ روما لم تشأ التدخّل في كيليكية طيلة النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، عادةً مسألة كيليكية شأنًا خاصًا بالمملكة السلوقيّة⁴، وأنّ دوام التنافس على العرش السلوقي سيحوّل دون قيام حكم قويّ في الشرق، ما يعني بالنسبة إلى روما الحفاظ على أمنها، وسلامتها.

¹ Cicero, II Verr, 26.

² راجع الفصل الأول.

³ Strabo, XIV, V, 2.

⁴ Beek, (2015), p. 108.

في حين يرى بعض الباحثين أنّه قبل عام 102 ق.م لم يكن من صالح أيّ جهة أن تتمع القرصنة في كيليكية نهائياً؛ فبالنسبة إلى لساناتو كانت القرصنة وسيلة تبادلٍ رئيسة في منطقة كيليكية، لذا من المستحسن إضعاف هذه الممارسة من دون إيقافها. وبالنسبة إلى أنتونيوس "حاكم ولاية كيليكية" فإنّ لسلطته ما يسوّغها بوجود القراصنة في المنطقة، وأنّ إزالتها بسرعة سيضع حدّاً لطموحاته الكبيرة. وبالنسبة إلى المدن الكيليكية فإنّ القرصنة ممارسة تقليدية وإن لم تكن قانونية، وإنّ إلغائها سيؤدّي إلى اضطرابات اقتصادية في المنطقة. أمّا بالنسبة إلى مثيرداتس السادس "ملك بونتوس" فإنّه وجدّ في القراصنة حليفاً فعّالاً، لتوظيفهم مرتزقةً ضدّ روما¹.

ويقدّم فلوروس في كتابه بعنوان "الحرب ضدّ القراصنة" صورة حيّة لنشاط قراصنة كيليكية وانتشارهم بدايةً في الحوض الشرقي للبحر المتوسط.

وفي الوقت نفسه، حين كان الشعب الروماني مشغولاً في أنحاء العالم المختلفة، سيطر الكيليكيون على البحار، جاعلين التواصل بينها مستحيلاً، وزعزعوا الأمن في الأرجاء. وفعلوا بعملياتهم العسكرية ما تفعله العواصف بإغلاق حركة المرور البحرية. وقد أجّبت الفوضى الناجمة عن حرب مثيرداتس في آسيا روح الجراءة في هؤلاء اللصوص البائسين المشردين...، وقد حصروا عملياتهم في البداية تحت قيادة إزودوروس في البحار المجاورة، ومارسوا أعمال النهب ما بين كريت وقوريناية، وآخايا والبحر المقابل لرأس

¹ Varenne, (2013), p. 190.

مالالي، ومن كثرة الغنائم التي اكتسبوها أطلقوا هم أنفسهم على تلك

المنطقة البحر الذهبية¹.

وهكذا فإن روما لم تبدأ بأعمالها العسكرية ضد القرصنة في كيليكية حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، بعد أن هرع حلفاؤها يستجدون بالسنانو؛ لوضع حد للقرصنة الذين عاثوا فساداً في شرقي البحر المتوسط، فبادر السناتو إلى إرسال البرايتور² ماركوس أنتونيوس حاكماً لولاية كيليكية مدّة عامين، ومُنح سلطة بروقتنصل³ ووكل مهمة القضاء على القرصنة⁴.

أبحر أنتونيوس إلى كيليكية في ربيع عام 102 ق.م بجيش كبير جمعه من إيطاليا، وفي طريقه انضمت إليه بعض القوات البحرية من الحلفاء، إذ بدأ أنتونيوس فور وصوله بمهاجمة منطقة كيليكية تراخية في البر والبحر، وأحرز انتصاراتاً عدّة على القرصنة في عامي حكمه، ما خوّله الحصول على موكب نصر بعد عودته إلى روما⁵.

¹ Florus, I, XLI, 6.

² البرايتور **Praetor**: أعلى المناصب الحكومية في روما الذين يتمتعون بالسلطة Imperium، بعد منصب القنصلية. كان عددهم في بداية الجمهورية اثنين. ثم تضاعف هذا العدد مع توسع أملاك الجمهورية، وإنشاء الولايات.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1203.

³ بروقتنصل **Pro-Consul**: قنصل سابق.

⁴ Bradford, (2007), p. 39; Beek, (2015), p. 107.

⁵ De Souza, (1992), p. 266.

وفي العقدين الأولين من القرن الأول قبل الميلاد لم توجه روما أي حملة عسكرية مباشرة لمحاربة القراصنة، واكتفت بإرسال تحذيرات للدول المختلفة في شرقي البحر المتوسط بقطع علاقاتها مع القراصنة الكيليكين وإغلاق الموانئ في وجههم¹.

ومن المحتمل أن روما في تلك المدة وضعت في أولويتها القضاء على مثيرداتس الذي كان الداعم الأول لنشاطات القراصنة، ومن ثم أصبحت محاربة القرصنة في كيليكية جزءاً من تلك الحرب. وفي ظلّ الأزمات الداخلية التي كانت تعيشها روما آنذاك كان من الصعب جداً تكريس كل الجهود للتفرغ لمحاربة القراصنة².

ويعودُ أبيان ليؤكد أن مثيرداتس كان السبب في تنامي خطر القراصنة الكيليكين، وتضاعف أعدادهم على نحوٍ خارجٍ عن السيطرة.

أطلقهم مثيرداتس في البداية في حين كان يجتاح الشواطئ، ظناً منه أنه لم يعد باستطاعته امتلاك تلك المناطق. بعد ذلك تضخم عددهم على نحوٍ كبير جداً، ولم ينحصر وجودهم في السفن، بل أخذوا بمهاجمة السواحل والقلاع والمدن³.

ومع استمرار ازدياد خطر القراصنة، بادرت روما لإرسال حملة عسكرية ثانية بهدف وضع حدٍ لنشاطهم في منطقة كيليكية بقيادة القنصل بوبليوس سيرفيليوس، الذي استمرّ بمحاربة القراصنة بين عامي 78 - 74 ق.م⁴. وبحسب رواية فلوروس فإنّ

¹ Bradford, (2007), p. 39.

² راجع التمهيد العام للرسالة. وانظر: Plutarch, Pompey, 24, 2.

³ Appian, XII, IX, 63.

⁴ Bradford, (2007), p. 41; Beek, (2015), p. 124.

خطر القرصنة استمرّ بالازدياد حتّى وصل إلى شواطئ إيطاليا نفسها، مع الانتصارات التي حقّقها سرفيليوس.

أرسل بوبوليوس سيرفيليوس ضدّ القرصنة، وبالكاد استطاع التغلّب على سفنهم الخفيفة والمراوغة بسفنه الثقيلة ذات العتاد الحربيّ، وحقّق عليهم نصرًا داميًا. وعلى أية حال، لم يؤدّ الانتصار إلى طرد القرصنة من البحار، وإنّما أدّى إلى إسقاط مدنها الحصينة التي كانت مملوءة بالأسلاب التي جمعوها مدّة طويلة...، وعاد القرصنة ثانية إلى طبيعتهم فانطلقوا في البحار، ووسّعوا نطاق عملياتهم إلى مناطق أبعد من ذي قبل، وأثاروا الرعب على شواطئ صقلية وكامبانيا بهجماتهم المفاجئة¹.

يتّضح أنّ الحملات العسكرية المباشرة التي أرسلتها روما لمحاربة القرصنة في كيليكية لم تأتِ بأيّة نتائج ملموسة في تقليص خطر القرصنة الذي كان آخذًا في التنامي على نحو كبير في تلك الفترة². كما أنّ الأعمال العسكرية ضدّ مثيرداتس لم تفلح في القضاء عليه، وإنّما دفعته أكثر لتوظيف القرصنة في إنهاك قوّة روما، وتشتيت جيوشها.

¹ Florus, I, XLI, 6.

² حول الحرب ضدّ مثيرداتس، انظر:

Beek, (2015), p. 134- 142; De Souza, (1992), p. 279- 300 .

سادسًا: الحرب على كريت:

لم تلتفت روما إلى محاربة القرصنة في جزيرة كريت قبل حادثة اختطاف يوليوس قيصر عام 74 ق.م.¹ وبحسب رواية فلوروس فإنّ السبب وراء الحملات العسكرية التي شنتها روما على كريت، يعود إلى تقديم الكريتيين المساعدة إلى مثريداتس السادس ملك بونتوس.

"جاءت الحرب الكريتية، إذا صحّ الخبر، نتيجة مساعدتها لمثريداتس، فضلًا عن رغبتنا باحتلال تلك الجزيرة الشهيرة. فكان لا بدّ من معاقبتها على هذا الجرم بقوة السلاح"².

وبمقارنة رواية فلوروس هذه مع ما ورد لدى أبيان في حديثه عن استخدام مثريداتس للقراصنة "مرتزقة"، يتضح أنّ الكريتيين كانوا من بين القراصنة الذين وظّفهم مثريداتس حنودًا مرتزقة في حربه مع روما.

"عندما دخل مثريداتس في المرّة الأولى الحرب مع روما، واحتلّ آسيا، كان واثقًا من أنّه لن يتمكن من الاستحواذ عليها مدّة طويلة؛ فحاول نهبها بطريقة أو بأخرى كما أسلفت، فأطلق القراصنة في البحر. وقد أخذوا يضايقون النّاس في الجوار بمراكبهم الصّغيرة كما

¹ للمزيد من المعلومات حول حادثة اختطاف يوليوس قيصر، راجع الفصل الثاني - الخطف والفدية. وانظر:

Osgood, (2010), p. 320- 329.

² Florus, I, XLII, 7.

هي عادةً القرصنة. ولكن ما أن اندلعت الحرب حتى تضاعف عددهم، وصاروا يُبحرون بسفن كبيرة¹.

وهكذا فإن الحرب على جزيرة كريت وإن كانت تحمل شعار القضاء على القرصنة، إلا أنها كانت تهدف أساساً إلى حرمان مثيرداتس من الحصول على دعم القرصنة الكريتيتين. ولا شك أن رغبة روما في السيطرة على كريت كانت نابعة من سياسة الهيمنة على كامل حوض البحر المتوسط أيضاً، التي كانت قد بدأت فعلياً مع مطلع القرن الثاني قبل الميلاد.

بدأت الحملة العسكرية الأولى على كريت نحو عام 74 ق.م. بقيادة القنصل ماركوس أنتونيوس قائد الحملة ضد القرصنة في كيليكية عام 102 ق.م. وقد انطلق بقواته من جزيرة صقلية وتمكن بدايةً من تحقيق الانتصار على القرصنة بعد مناوشات بحرية في البحر الإيوني²، إلا أن الوضع سرعان ما تبدل بعد مهاجمته للجزيرة، إذ لقيت قواته هزيمة ساحقة أمام القرصنة الذين حطّموا أسطولهم، وعلّقوا جثث جنوده على سواي السفن³.

ومع إخفاق حملة أنتونيوس على كريت، إلا أنه حمل لقب كريتيكوس أي "قاهر كريت"، لكنه لم تُنح له الفرصة للاحتفال بهذا اللقب؛ إذ تعرّض إلى الاغتيال

¹ Appian, XII, XIV, 92.

² Beek, (2015), p. 144.

³ Florus, I, XLII, 7.

وهو في طريق عودته إلى روما¹. وعلى حدّ قول المؤرّخ ديودور الصقليّ فقد سعى الكريتيّون إلى عقد معاهدة سلام مع روما، إلا أنّ السناتو رفض الموافقة على ذلك².

ويبدو أنّ رواية بلوتارخ عن قيام القراصنة بمهاجمة الشواطئ الإيطاليّة وخطف قاضيين رومانيّين، وخطف ابنة أنتونيوس كريتيكوس أيضًا، تعود لنفس الفترة التي جرت فيها حملة أنتونيوس على كريت، ما يعني أنّ خطر القراصنة كان آخذًا في التنامي.

وجّه القراصنة أعظم الإهانات للرومان، حتّى إنهم خرجوا من البحر وأخذوا يمارسون النهب على طرقهم ومزارعهم المجاورة. وفي إحدى المرّات اختطفوا برايتورين رومانيّين هما سكستيليوس و بيلينيوس، بعباءاتهم ذات الحواف الأرجوانيّة، وحملوهم بعيدًا مع مرافقيهم ومساعدتهم. واختطفوا ابنة أنتونيوس كذلك، ودُفعت فدية كبيرة لأجلها³.

وبعد إخفاق حملة ماركوس أنتونيوس على كريت، عادت روما لإرسال حملة جديدة لاحتلال الجزيرة عام 68 ق.م. بقيادة البروقنصل ميتيللوس، ومع الانتصارات التي أحرزها ميتيللوس ضدّ القراصنة في كريت، إلا أنّ الجزيرة رفضت التسليم له،

¹ Beek, (2015), p. 146.

² Diodorus, 40.1.

³ Plutarch, Pompey, 24, 6.

وفضّلت التسليم لبومبيوس الذي أرسل أحد مساعديه؛ لتنظيم أمور الجزيرة. ولم ينل ميتيلوس من تلك الحملة سوى لقب كريتيكوس¹.

سابعًا: حملة بومبيوس ماغنوس ضد القرصنة 67 ق.م:

من اللافت للنظر أنه ومع الحملات العسكرية السابقة التي أرسلتها روما جميعها؛ لمحاربة القرصنة، التي حققت معظمها الانتصار عليهم؛ كان خطر القرصنة في ازدياد مضطرب طيلة تلك المدة، ما دفع روما في نهاية المطاف إلى توجيه حملة شاملة لتطهير البحر المتوسط منهم بقيادة اجنايوس بومبيوس ماغنوس عام 67 ق.م.

1-تضخم ظاهرة القرصنة قبيل حملة بومبيوس:

حاول بلوتارخ في وصفه سيرة بومبيوس أن يعطي صورة لحياة القرصنة في حوض البحر المتوسط قبيل حملة بومبيوس الشاملة ضدهم. ومع أن تلك الصورة تحمل قدرًا من المبالغة لا يمكن تجاهله، إلا أنها تعد في غاية الأهمية لفهم خلفية تلك الحملة الواسعة النطاق.

أقام القرصنة معقل محصنة، وأبراج مراقبة للقيام بأعمال القرصنة في العديد من الأماكن، وجهزوها بأساطيل لم تكن مخصصة لعمل الطواقم القوية، والبحارة الماهرين، ولم تقتصر على السفن السريعة والخفيفة، وإنما كانت معداتهم توحى بالبذخ والترف أكثر مما كانت توحى بالخوف. فقد كانت الصواري مذهبة، والأشرعة أرجوانية

¹Florus, I, XLII, 7.

اللون، والمجاذيفُ مطليّةٌ بالفضّة، كما لو أنّهم كانوا يتفاخرون
بالظلم والشغب الذي أثاروه. كان صوتُ مزاميرهم وآلاتهم الوترية،
وحفلات السكر منتشرةً على طول السواحل. وقد ألحقوا العار
بالسيادة الرومانيّة نتيجةً أسرهم لأشخاصٍ من ذوي الرتب العالية،
وفرضهم الاتاوات على المدن. ووصل عددُ سفنهم الألف سفينة،
والمدن التي استولوا عليها بلغت الأربعمئة¹.

يوجي نصّ بلوتارخ بأنّ مسؤوليّة القضاء على القرصنة في البحر المتوسط قد
وقعت على عاتق روما، لأنّها أصبحت الدولة العظمى، وصاحبة السيادة العليا في
البحر المتوسط. ويعطي انطباعاً عن مقدار الغطرسة، والقوّة التي وصل إليها القراصنة
آنذاك. ويتفق وصف بلوتارخ مع ما تحدّث عنه فلوروس من إغلاق القراصنة للطرق
البحريّة، وإطلاقهم اسم "البحر الذهبي" على الحوض الشرقي للمتوسط².

ولا تختلف الصورة التي قدّمها شيشرون في خطابه ضدّ فيريس كثيراً عن رواية
بلوتارخ في وصف الحد الذي وصل إليه خطرُ القرصنة، حتّى هدّد روما نفسها.

وفي السنوات القليلة الماضية، أي ولاية كانت آمنة من القراصنة!
وأية إيرادات سلمت منهم! وأي حليف كان بإمكان الأساطيل حمايته
أو الدفاع عنه!. كم من جزيرة تفترضون أنّها هُجرت، وكم مدينة من
مدن الحلفاء تظنونها تركت خوفاً من القراصنة، أو سلبوها. هل من
داعٍ للقول أنّه في تلك السنوات الماضية كان البحر مغلقاً أمام

¹ Plutarch, Pompey, 24, 3,4.

² Florus, I, XLI, 6.

حلفائنا، في وقت كانت جيوشنا نفسها لا تجرؤ على الإبحار من برونديزيوم إلا في فصل الشتاء؟. هل من داع للقول: إن السفراء القادمين إلينا قد وقعوا أسرى في وقت كنا فيه مجبرين على اقتداء السفراء الرومان!. هل من داع للقول إن البحر لم يكن آمناً للتجار عندما وقعت اثنتا عشرة سفينة بيد القراصنة؟. هل من داع للتذكير كيف استولى القراصنة على كنيديوس وكلولوفون وساموس، المدن الأكثر رفعة، وغيرها مما لا يحصى عدده. وأن موانئكم والموانئ التي تستمدون منها الحياة وتعد متنفساً قد غدت بأيدي القراصنة؟. هل تجهلون كيف تم نهب السفن في ميناء كآيتة الشهير أمام أعين الحاكم؟ وكيف خطف القراصنة أطفال القائد الذي قاد الحرب على القراصنة من قبل، وفروا بهم بعيداً؟. ولماذا علي أن أذكر بكارثة أوستيا، التي كانت وصمة العار على جبين الجمهورية عندما دمر القراصنة الأسطول القنصلي أمام أعيننا¹؟

يحاول شيشرون في هذا النص استمالة أعضاء السناتو؛ للموافقة على مشروع القرار القاضي بتوكيل مهمة القضاء على القراصنة لبومبيوس، وذلك بوساطة التركيز على جرائمهم التي ارتكبوها في السنوات السابقة، ولا سيما منذ ثمانينيات القرن الأول قبل الميلاد في ظل الحرب مع مثريداتس. ومن المرجح أن معظم ما تعرضت له روما بفعل أعمال القراصنة كان بتحريض ودعم مباشر من مثريداتس، أي إن تفاقم المشكلة التي واجهتها روما آنذاك كانت بفعل اتحاد القرصنة المنظمة مع القرصنة السياسية.

¹ Cicero, II Verr, 12, 13.

ويبدو أن ما زاد الوضع سوءاً فوق كل ذلك هو انقطاع واردات القمح إلى روما بفعل أعمال القرصنة في البحر، ما أُنذِر الحكومة بخطر انتشار المجاعة بين عوام الشعب الروماني، في وقت كانت فيه الصراعات الداخلية تمرق أوصال الجمهورية¹.

2- قانون جابينيوس:

من المعروف أن إدارة الشؤون الخارجية للجمهورية الرومانية كانت من صلاحيات السناتو، ومن ضمنها إعلان حالي الحرب والسلم، وتحريك الجيوش. إلا أن الظروف التي عاشتها روما في أواخر عهد الجمهورية غيرت تغيراً كبيراً في موازين السلطة؛ ما أجبر السناتو على منح القادة العسكريين من ذوي الكفاءة السلطة العليا "Imperium"، ومن ثم ظهور قادة كبار يملكون قوات عسكرية ضخمة تدين بالولاء لهم شخصياً لا للدولة.

ومع مرور الوقت وجد السناتو نفسه عاجزاً عن كبح جماح أولئك القادة المتعطشين إلى المجد السياسي، في وقت غدت فيه الانتصارات العسكرية الكبيرة هي الوسيلة الوحيدة إليه. وما أن حاول السناتو الوقوف في وجههم، حتى تحالفوا مع نقباء العامة، الذين أخذوا بدورهم يستصدرون قوانين تنص على منح السلطة العسكرية العليا الاستثنائية "Imperium Maius" للقادة بحجة حماية الدولة من الأخطار².

وفي ظل تلك الأزمة الخائفة التي كانت تمر بها روما، استطاع بومبيوس الضغط على السناتو؛ لتكليفه بمهمة إنقاذ روما من خطر المجاعة، الذي كان يندرج

¹ Plutarch, Pompey, 25, 1.

² علي، (1988)، ص 101-102

الجمهورية بالانهيار بفعل انتشار القراصنة، وقطعهم طرق الملاحة البحرية التي كانت تغذي روما بالحبوب. وذلك بفضل مشروع القرار الذي طرحه نقيب العامة¹ أولوس جابينيوس بداية عام 67 ق.م.² ويروي بلوتارخ تفاصيل هذا المشروع الذي غدا قراراً نافذاً بعد إقراره من السناتو تحت اسم "قانون جابينيوس الخاص بملاحقة القراصنة"

"Lex Gabinia de Piratis Persequendis"

استصدر جابينيوس، وهو شخصيّة مقربة من بومبيوس، قانوناً ينصّ على تعيينه قائداً أعلى للأسطول، ومنحه سلطة مطلقة "ملكية" تفوق سلطة أي رجل آخر. وأعطاه القانون سيادة كاملة على البحار الواقعة على هذا الجانب من أعمدة هرقل، وعلى شواطئ تلك البحار حتى مسافة خمسين كيلومتراً نحو الداخل. وقد شملت تلك الحدود المناطق الرومانية جميعها، وأعظم الأمم وأقوى الملوك. وأعطى إلى جانب ذلك صلاحية اختيار خمسة عشر مساعداً من بين أعضاء السناتو للعمل في المقاطعات المتعددة، وأخذ كل ما يلزمه من أموال من الخزينة العامة ومن عائدات الضرائب. وتجهيز مئتي سفينة بما يلزم من البحارة والجنود.... ثمّ تمكّن بدعم من الجمعية الشعبية من الحصول على امتيازات أخرى،

¹ نقيب العامة Tribuni Pelpis: أحد المناصب العامة، أحدث بين 500 - 450 ق.م. لا يتمتع شاغله بالسلطة العليا (Imperium)، وقد كانت وظيفته المطالبة بحقوق عامة الشعب الروماني، بوساطة الجمعية العامة. وقد ازداد تأثيرهم في أواخر عصر الجمهورية.

Harnblower, Spawforth, (2012), p. 1504.

² Ormerod, (1924), p. 233; De Souza, (1992), p. 230; Mommsen, (1862), p. 106.

ومضاعفة قوّاته. فأصبح أسطولهُ مكوّنًا من خمسمئة سفينةٍ بطواقمها، ومئةٍ وعشرين ألفًا من الجنود، وأضيفَ إليه خمسمئة فارسٍ. وزيدَ عددُ مساعديه إلى أربعةٍ وعشرين، إلى جانب مساعدين اثنين برتبة كوايستر¹.

يعطي قانون جابينيوس انطباعًا عن حجم الخطر الذي شكّله القرصنة بالنسبة إلى روما؛ بالسلطة المطلقة، والإمكانات العسكرية، والمادية الهائلة التي وُضعت بيد بومبيوس، التي وصفها بلوتارخ "بالملكية Monarchy". وهي كلمة عميقة الأثر في نفوس الرومان، وتتبى بحدوث تغييراتٍ سياسيةٍ في نظام الجمهورية الرومانية، الذي كان آخذًا في التحول إلى النظام الامبراطوري.

ولا يختلفُ وصفُ أبيان لقانون جابينيوس عمّا جاء به بلوتارخ إلا في بعض التفاصيل البسيطة. ويضيفُ أنّ صلاحية السلطة التي أعطاه القانون إلى بومبيوس مدّتها ثلاث سنواتٍ، وهي قوّة لم يسبق أن أُعطيت إلى أيّ قائدٍ آخر طيلة عصر الجمهورية الرومانية².

3- الحملة العسكرية ضدّ القرصنة:

تُصوّر المصادر الأدبية حملة بومبيوس أنّها حملة استثنائية لم يسبق للجمهورية الرومانية أن شهدت مثيلاً لها؛ ليس فقط من حيث السلطة المطلقة، والإمكانات

¹ Plutarch, Pompey, 25, 26.

² Appian, XII, XV, 97.

العسكرية الهائلة التي وُضعت في إمرة بومبيوس، ولكن من حيث المدة الزمنية التي استغرقتها، التي لم تتجاوز الثلاثة أشهر¹!

وبحسب رواية بلوتارخ فإن بومبيوس قسم البحر المتوسط، والشواطئ المتاخمة له إلى ثلاث عشرة منطقة، وأرسل إلى كلٍ منها جزءاً من أسطوله بقيادة أحد مساعديه². وقد رسم أحد الباحثين خارطة تُبين توزع تلك المناطق في حوض البحر المتوسط، وأسماء المساعدين الذين تولوا القيادة فيها (الخرائط رقم 16 - 17).

وقد كانت غاية بومبيوس من ذلك إنشاء مناطق آمنة، وتحويلها إلى نقاط دفاع وهجوم في الوقت نفسه ضد القرصنة، ما يضمن منعهم من التعاون فيما بينهم³. ولا شك أن المساحة الكبيرة لنطاق العمليات العسكرية كانت تستوجب مثل هذا التقسيم، بغرض سد الفراغ الأمني الذي كان قد استغله القرصنة لممارسة نشاطهم.

بدأت العمليات العسكرية في شهر كانون الثاني من عام 67 ق.م؛ أي ما قبل حلول موسم الملاحة، وكان بومبيوس قد جعل أولويته تأمين عودة تدفق الحبوب إلى الأسواق في روما⁴. وبحسب وصف بلوتارخ فقد جرى أولاً تطهير الحوض الغربي للمتوسط من خطر القرصنة، وذلك في أربعين يوماً.

حاصر بقواته المنتشرة في كل الجوانب أساطيل القرصنة، وقبض على كل من ظهر في وجهه، وأرسلهم إلى الموانئ، في حين نجح بعضهم بالفرار والاختباء في أوكارهم، وهرعوا من كل حدب وصوب

¹ Appian, XII, XIV, 95; Plutarch, Pompey, 28.

² Plutarch, Pompey, 26, 3.

³ Appian, XII, XIV, 95.

⁴ De Souza, (1992), p. 232; Ormerod, (1924), p. 235.

إلى كيليكية. وقد كان بومبيوس ينوي المضي إليهم شخصيًا بأفضل ستين سفينة من أسطوله، إلا أنه لم يباشر بذلك حتى أخضع كل القراصنة في البحر التيراني، والبحر الليبي، والمنطقة المحيطة بسردينية، وكورسيكا، وصقلية، وذلك كله في غضون أربعين يومًا¹.

وما أن انتهى بومبيوس من تأمين الحوض الغربي للمتوسط من خطر القراصنة، حتى عاد إلى روما؛ لتسوية بعض الأمور العالقة بينه وبين خصومه، وقد استقبله الشعب الروماني بحفاوة كبيرة. وبعد أيام عدة انطلق من ميناء برونديزيوم؛ لاستكمال أعماله ضد ما تبقى من القراصنة في شرقي المتوسط².

أبحر بومبيوس باتجاه الشرق، وقد كان من المتوقع حدوث معارك كبيرة بينه وبين القراصنة، إلا أن سُمعة بومبيوس العسكرية، وسرعته الكبيرة في التحرك أذهلت القراصنة، ودفعتهم إلى الاستسلام له³. ويصف بلوتارخ تلك الأحداث بقدر أكبر من التفصيل.

ومع العمل الطارئ لم يستطع بومبيوس المرور من أثينا كما مر من المدن الباقية على عجل، بل إنه زار المدينة وألقى فيها خطابًا، وقدم الأضاحي للآلهة... بعض عصابات القراصنة التي كانت لا تزال هائمة في البحر طلبت الرحمة، فعاملهم بالصفح بعد أن استولى على سفنهم، ولم يلحق بطواقمهم أي أذى، ما شجع غيرهم من

¹ Plutarch, Pompey, 26, 3.

² Florus, I, XLI, 6; Plutarch, Pompey, 27, 1.

³ Appian, XII, XIV, 95.

القرصنة على الانشقاق عن زعمائهم، وحمل أطفالهم ونسائهم والدخول تحت رحمة بومبيوس. وقد آمنهم على أرواحهم مقابل مساعدته في تعقب فلول القرصنة المختبئين الذين لم يسلموا أنفسهم، لإدراكهم أن جرائمهم لا يمكن أن تغتفر. ولكن العدد الأكبر والأقوى من القرصنة وضعوا أسرهم، وأطفالهم، وكنوزهم في حصون، وقلاع قوية بالقرب من جبال طوروس، في حين جهزوا سفنهم وانتظروا هجوم بومبيوس عند خليج كوركيسيوم في كيليكية. وهناك هُزموا في معركة بحرية، وحوصروا، فأرسلوا إلى بومبيوس طالبين الاستسلام، وتسليمه المدن والجزر التي كانت في حوزتهم... وهكذا تكون الحرب قد انتهت، وطُرد القرصنة من البحر في أقل من ثلاثة أشهر¹.

تُعطي رواية بلوتارخ صورة واضحة عن سياسة بومبيوس التي تمكّن بواسطتها من إخماد خطر القرصنة في حوض البحر المتوسط كاملاً، ومن دون سفك كثير من الدماء. وتتلخّص هذه السياسة باستعراض بومبيوس قوّاته العسكرية الكبيرة التي لا يمكن للقرصنة الوقوف في وجهها، ثم فتح باب العفو للقرصنة الذين يريدون النجاة بأنفسهم، والحصول على فرصة جديدة في الحياة. وهكذا فإن بومبيوس لم يُثبت كفاءته العسكرية فحسب؛ بل أثبت حنكته السياسيّة، وقدرته على معالجة الأمور بالحزم واللين معاً أيضاً.

¹ Plutarch, Pompey, 27, 3,4.

ويُنتهي كذلك فلوروس على سياسة بومبيوس الحكيمة، ولا سيما في إبعاده للقرصنة عن البحر، وتحويلهم إلى مزارعين¹. ويوضح أبيان الإجراءات التي اتخذها بومبيوس بعد استسلام القرصنة، والتنظيمات التي اتبعتها لتوطينهم.

حرق بومبيوس الأخشاب، واستولى على السفن، ثم أرسل الأسرى إلى بلادهم...، ووطّن القرصنة، الذين مارسوا هذا الأسلوب من العيش نتيجة الفقر والعوز، لا نتيجة رغبتهم في ارتكاب الشرور، في كل من مالوس وأضنة وأبيفانيا، أو أي منطقة غير مسكونة، أو فقيرة السكان في كيليكية تراخية. وأرسل بعضهم إلى ديمي في آخايا².

تكشف الإجراءات التي اتخذها بومبيوس بحق القرصنة عن بعد النظر الذي كان يتمتع به، وإدراكه الشديد للأسباب التي دفعت الكثيرين من السكان إلى ممارسة القرصنة، ولا سيما حالة الفقر التي كانوا يعيشون بها. وإن فكرة توطين هؤلاء القرصنة، وتحويلهم إلى مزارعين تعد إجراء بعيد المدى؛ للحد من انتشار القرصنة في تلك المنطقة. وهذا ما يفسر تفضيل سگان كريت التسليم لبومبيوس الذي أرسل أحد مساعديه؛ لتنظيم أمور الجزيرة، بدلاً من التسليم لميتيلوس³.

¹ Florus, I, XLI, 6.

² Appian, XII, XIV, 96.

³ راجع الفصل الثالث - الحرب على كريت.

وتتفق المصادر السابقة جميعها أن بومبيوس تمكن من إنقاذ روما من شرور القراصنة، وأعاد الأمن والأمان إلى سابق عهده في تلك المدة القصيرة. ويشيد شيشرون كذلك بشجاعة بومبيوس الذي أعاد بحسب وصفه الحياة إلى روما من جديد.

يا له من رجلٍ مذهلٍ!، يا للقوة والشجاعة التي منحتهُ إياها الآلهة!،
ففي مدةٍ قصيرةٍ جعلَ الشمسَ تشرقُ على الجمهوريّة الرومانيّة من
جديدٍ. أنتم يا من كنتم قبلَ برهةٍ ترونَ أساطيلَ القراصنة على مدخلِ
التّيبير، لم تعودوا تسمعونَ حتّى إشاعاتٍ عن وجودِ القراصنة في أيّ
من البحارِ المحيطة¹.

4- حملة بومبيوس، وأبعادها السياسيّة:

يوصي الباحثون بالحدّ عند تناول المصادر الأدبيّة، ويقولون أن المعلومات التي تقدّمها تلك المصادر وإن كانت تستند إلى وقائعٍ حقيقيّة، إلا أنّها لا تخلو من المبالغة في تصوير الأحداث. ويضع في مقدّمة تلك المصادر شيشرون؛ إذ إنّهُ أكثر من استخدام مصطلح القرصنة "المتخيلة" في وصف الأعمال الخارجة عن القانون. ويضيف أن شيشرون بصفته أحد أنصار بومبيوس، عمل على استخدام القرصنة وسيلةً دعائيّة؛ للضغط على السناتو من أجل الموافقة على مشروع قانون جابينيوس².

ومن الباحثين من يتفق تمامًا أن شيشرون استخدم مصطلح القرصنة وسيلةً بلاغيّة؛ لإقناع السناتو بالموافقة على حملة بومبيوس، إذ عمل في خطاباتهِ على

¹ Cicero, Imp, Pompey, 33.

² Varenne, (2013), p. 26.

التهويل من حجم الخطر الذي شكّله القراصنة، وحاول إظهار بومبيوس بمظهر البطل الذي أنقذ الجمهورية من حافة الانهيار، أو على حدّ تعبير دي سوزا "أوجد لبومبيوس تنيناً كي يذبحه"¹.

وعلى أية حال، يمكن رؤية العديد من المؤشرات على وجود "التضخيم الإعلامي" المرافق لحملة بومبيوس، وعلى وجود أبعاد سياسية، ومصالح شخصية تتجاوز شعار "محاربة القراصنة" أعداء الشعب الروماني.

أ- التناقض في المصادر الأدبية:

أظهرت المصادر الأدبية القراصنة بمظهر العدو الذي يهدّد أمن الجمهورية الرومانية، ويمتلك من القوة والإمكانات الحربية ما يستدعي حشد مثل ذلك الجيش الضخم، ومنح السلطة المطلقة لقائد ذلك الجيش؛ لمحاربة القراصنة. ومن ثمّ تناقض المصادر نفسها حين تقول: إنّ بومبيوس تمكّن من إنهاء وجود القراصنة في حوض البحر المتوسط كاملاً في أقل من ثلاثة أشهر!

فلو أنّ قوة القرصنة كانت بالفعل كما صورتها المصادر، لما تمكّن بومبيوس بأية حال من الأحوال من القضاء عليها في تلك المدّة الوجيزة، وكان ذلك سيكلفه حتماً سنوات عدّة من الحرب الشاقة ضدّ عصابات القراصنة، ولا سيما على مساحة جغرافية هائلة جدّاً. وأنّ سياسة استعراض القوة، وفتح باب العفو أمام القراصنة الذين سارعوا إلى التسليم والاستسلام، يعدّ بحدّ ذاته دليلاً دامغاً على ضعفهم العسكري في مواجهة قوة روما.

¹ De Souza, (1992), p. 86- 88.

ب- الأسباب الحقيقية للحملة:

مع أن الحملة العسكرية التي قادها بومبيوس كان هدفها الأساسي والمعلن هو محاربة القراصنة، إلا أن المؤشرات تدل على وجود أسباب أخرى خفية وراء تلك الحملة. ذلك أن الإمكانيات والسلطة التي منحت لبومبيوس تبدو أكبر بكثير من حملة موجهة إلى محاربة مجموعات من القراصنة، ولا يستبعد أن يكون الهدف منذ البداية تسليم قيادة الحرب ضد مثريداتس لبومبيوس، ما يضمن له تحقيق الأمجاد العسكرية، والسمعة الكبيرة في القضاء على أعداء الجمهورية، وحمايتها من الانهيار.

ويأتي قانون مانيليوس دليلاً صريحاً على صحة هذا الافتراض؛ إذ صدر هذا القانون في أثناء وجود بومبيوس في الشرق، وكلف بومبيوس بموجبه بمتابعة الحرب في الشرق ضد مثريداتس السادس، فضلاً عن صلاحياته الواسعة في مهمة القضاء على ما تبقى من فلول القراصنة في تلك المنطقة. ولا شك أن أنصار بومبيوس في روما كانوا وراء صدور هذا القانون وكانوا وراء صدور قانون جابينيوس من قبل¹. أضف إلى ذلك أن مسألة القضاء على القراصنة تكمن في قطع أسباب ازدهارها؛ ولأن مثريداتس في ذلك الوقت كان السبب وراء تحريض القراصنة ضد روما، فلا يمكن بالضرورة فصل محاربته عن محاربة القراصنة.

وبالنظر إلى الخلفية السياسية للأحداث في روما فبيل صدور قانون جابينيوس، وتكليف بومبيوس بمهمة القضاء على القراصنة، يمكن فهم المصالح المتبادلة بين

¹ حول قانون مانيليوس، انظر: نصحي، (1978)، ص 101-103.

بومبيوس وحلفائه؛ ذلك أنه بعد عودة بومبيوس من إسبانيا تمكّن من النجاح في الانتخابات القنصلية عام 70 ق.م، مع معارضة السناتو الشديدة له، ويعود الفضل في ذلك إلى نجاحه في التقرب من طبقة العوام بوعدهم إعادة حقوق نقباء العامة إلى ما كانت عليه في السابق، وتقرّب من طبقة الفرسان "ومن بينهم شيشرون" بوعدهم إصلاح تشكيل هيئات المحلفين التي كانت من قبل تتكوّن من أعضاء هذه الطبقة، وعلى إثر ذلك نجح في الوصول إلى القنصلية، ومن ثم قيادة الحرب ضدّ القراصنة.

ولأنّ ملتزمي جباية الضرائب في الولايات كانوا من بين أفراد طبقة الفرسان¹؛ فهذا يعني أنّ إنشاء ولايات جديدة وغنيّة في الشرق سوف يعود عليهم بفوائد ماديّة كبيرة جدّاً، ومن ثمّ وجدوا في بومبيوس الرّجل المناسب لتلك المهمّة، وتمّ تكليفه بقيادة الحرب في الشرق، التي انتهت بالسيطرة على مملكة بونتوس، وتحويل سورية إلى ولاية رومانيّة².

¹ نصحي، (1978)، ص 101 - 103.

² أصبح جابينيوس حاكماً لولاية سورية الرومانية، في الفترة ما بين 58-55 ق.م.

De Souza, (1992), p. 125.

ثامناً: انتهاء خطر القرصنة:

خفت بريقُ القرصنة في المصادر الأدبية بعد حملة بومبيوس، كما لو أنها لم تكن ذلك الخطر الذي زعزع أمن الجمهورية الرومانية واسقرارها!. فهل تمكّن بومبيوس فعلاً من التخلص من مشكلة القرصنة إلى غير رجعة كما صوّرت ذلك العديد من المصادر؟! أم أنه فقط نجح بتحويل تلك المشكلة إلى درجة أن المصادر لم تعد تُعنى بالحديث عنها؟!

بيّنت إحدى الدراسات أن غياب ذكر القرصنة من المصادر الأدبية بعد حملة بومبيوس لا يعني أنه قد أخضع القرصنة، مع التخلص من خطرهم نهائياً. وقد حاولت الدراسة تتبّع ما أمكن من الإشارات على وجود القرصنة، ولا سيما في الحوض الشرقي للمتوسط، ويذهب الباحث إلى القول: إن حملة بومبيوس لم تسهم إسهاماً فاعلاً في إنهاء مشكلة القرصنة¹.

ومع أن القرصنة كانت نشطة إلى حد ما بعد حملة بومبيوس؛ إلا أنه لا يمكن الإنكار أن سياسة بومبيوس في توطين القرصنة بعيداً عن البحر، وتحويلهم إلى مزارعين، قد حدّت على نحو كبير من انتشار القرصنة، وعلى وجه التحديد "القرصنة الفردية". وبالعودة إلى فكرة فارن في أن القرصنة كانت عادة متأصلة في حياة كثير من المدن، يمكن القول: إن إخضاع "القرصنة المنظمة" لم يكن من عمل بومبيوس².

¹ للمزيد من المعلومات حول هذه الدراسة انظر:

De Souza, (1992), p. 344- 354.

² Varenne, (2013), p. 190.

ويُستدلُّ على استمرار وجود القرصنة المنظمة في البحر المتوسط بوضوح بوساطة الاتهام الذي وُجِّه إلى سكستوس بومبيوس في التعاون مع زعماء القراصنة، والخارجين عن القانون، وتوظيفهم من أجل محاربة خصومه في روما¹. ما يعني أنَّ القرصنة كانت لا تزال كامنة، وتنتظرُ الفرصة المناسبة للنشاط من جديد.

إنَّ الوسيلة الوحيدة لمعالجة تضخم ظاهرة القرصنة بأشكالها جميعها، تكمن في قطع الأسباب التي أدت إلى ذلك التضخم. وإن كان العامل الجغرافي في بعض المناطق يعدُّ محفزاً للسكان؛ لامتھان القرصنة، فإنَّ العامل الأمني هو المسبب الأساسي لازدهار القرصنة وتحولها من محض شكل من أشكال اللصوصية، إلى مشكلة بالغة الخطورة. وهذا يعني أنَّ إحلال السلام في حوض البحر المتوسط، هو الضامن الوحيد لقمع تلك الظاهرة، وإعادتها إلى حجمها الطبيعي.

ولم يشهد حوض البحر المتوسط حالة السلام تلك حتى عهد أوغسطس²، أي مع مطلع عصر الامبراطورية الرومانية، وتحول البحر المتوسط بالكامل إلى بحيرة رومانية، إذ أعلن أوغسطس السلام الروماني "Pax Romana"، ونشر الحاميات الرومانية في المناطق المختلفة، وأصبحت قطع الأسطول الروماني حارسة للأمن في مياه البحر المتوسط كملة³.

* * * * *

¹ Appian, V, VIII, 67; Plutarch, Pompey, 32, 1.

² أوغسطس (Augustus): أول الأباطرة الرومان وأشهرهم، ومؤسس نظام الحكم الامبراطوري في روما، حكم بين عامي (27 ق.م - 14 م). وقد شهدت مدة حكمه حالة من الرخاء، والازدهار، والاستقرار.

³ عن حالة السلام الروماني انظر:

Travers, (2009), p. 50- 58; Davie, (2012), p. 43- 51.

الخاتمة

جرت هذه الدراسة بهدف فهم العلاقة بين "تضخم ظاهرة القرصنة" وبين مدة "بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط"، وقد تبين وجود جملة من العوامل، أدت مجتمعة إلى تضخم ظاهرة القرصنة على نحو متزايد، ومتزامن مع مدة بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط. وتتلخص تلك العوامل بالنقاط الآتية:

- 1- حالة الفراغ الأمني الناجمة عن سياسة الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، والقائمة على إضعاف الدول التي كانت تتولى مهمة حفظ الأمن في البحر، ومن ثم القضاء عليها واحدة تلو الأخرى. في وقت عجزت فيه روما وحدها عن سدّ ذلك الفراغ الأمني.
- 2- الحروب والصراعات المستمرة، وما نتج عنها من فوضى واضطرابات، وهذا ما هيأ الظروف الملائمة لنمو القرصنة وازدهارها.
- 3- سوء الأوضاع الاقتصادية في بعض المناطق دفع عدداً من السكان إلى ممارسة القرصنة واللصوصية، بدلاً من الأعمال الشرعية.
- 4- ظهور شخصيات سياسية بارزة عملت على تنظيم القراصنة، ما أدى إلى تحوّل القرصنة من "قرصنة فردية" إلى "قرصنة منظمة".
- 5- توظيف القراصنة مرتزقة في خدمة مصالح بعض الحكام، أو الشخصيات السياسية النافذة، ومن ثم اتّحاد القرصنة المنظمة مع القرصنة السياسية.
- 6- وجود الأسواق القادرة على تصريف البضائع التي يعرضها القراصنة جميعها، ومن دون الاكتراث لمصدر تلك البضائع.

7- ازدهار تجارة العبيد على نحو متزايد، وارتفاع الطلب عليهم ولا سيما في روما، شجع

القرصنة على الانخراط في هذه التجارة المربحة.

8- وجود مصالح مشتركة بين زعماء القرصنة، وبعض الشخصيات النافذة في روما،

ولا سيما من حكام الولايات، ما دفعهم إلى التغاضي عن أعمال القرصنة.

وبعد فهم الأسباب التي أدت إلى تضخم ظاهرة القرصنة، على نحو متزايد، ومتزامن مع

مرحلة بسط الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، وصلت الدراسة كذلك إلى فهم

الأسباب التي أدت إلى خمود ظاهرة القرصنة، مع اكتمال الهيمنة الرومانية على حوض البحر

المتوسط

إن "زوال" الأسباب التي أدت إلى تضخم ظاهرة القرصنة في مرحلة الهيمنة الرومانية

على حوض البحر المتوسط، هو السبب الحقيقي في خمود نشاط تلك الظاهرة، بالتزامن مع

اكتمال الهيمنة الرومانية! ويتلخص ذلك بعبارة "السلام الروماني Pax Romana"؛ إذ شهد

مطلع عصر الإمبراطورية الرومانية حالة من الاستقرار الأمني في كامل مساحة حوض البحر

المتوسط؛ إذ أصبح حوض المتوسط برمته بحيرة رومانية، وأخذت الأساطيل والحاميات الرومانية

على عاتقها مسألة حفظ الأمن والأمان، ومن ثم سد الفراغ الأمني الذي ازدهرت القرصنة في

وسطه.

وتلك المدة قد شهدت انتهاء سلسلة من الحروب التي دامت مدة طويلة جدًا، ومن ثم عاد

نظام الحياة إلى العمل على نحو طبيعي في أنحاء الإمبراطورية جميعها، وازدهرت الأحوال

الاقتصادية من جديد، وهكذا لم يعد أحد مضطراً لامتھان القرصنة بوصفها "مصدراً للعيش".

ومن دراسة ظاهرة القرصنة "في ظل الهيمنة الرومانية"، فقد لوحظ وجود دور لروما في ازدياد نشاط القرصنة؛ ذلك أن سياسة روما الخارجية هي التي تسببت بحالة الفراغ الأمني في حوض البحر المتوسط، الذي أدى بدوره إلى الاسهام في تضخم ظاهرة القرصنة. إلا أنه وفي الوقت ذاته لا يمكن تحميل حكومة روما كامل المسؤولية عن تلك المشكلة، نظرًا إلى انشغالها بالعديد من الحروب، والصراعات الداخلية والخارجية، وعجزها الفعلي عن تأمين مساحة حوض البحر المتوسط كاملة.

ولكن حالة الفساد التي كانت منتشرة في كثير من مفاصل الحكومة الرومانية كان لها دور مباشر في تضخم ظاهرة القرصنة؛ فمن ناحية كان هناك تقصير أحيانًا من بعض حكام الولايات في تأمين مناطق نفوذهم من خطر القرصنة، وتعاونهم مع القراصنة أحيانًا أخرى. ومن ناحية ثانية تقاعس بعض القادة عن حسم المعارك ضد القراصنة، بهدف إيجاد ذريعة لاستمرار استحواذهم على السلطة، واكتساب المجد والشهرة.

أضف إلى ذلك ازدياد الطلب على العبيد في روما، في وقت أدى فيه القراصنة دور تجار العبيد، ما يعني وجود علاقات بين زعماء القراصنة وشخصيات سياسية من ذوي النفوذ في روما، ممن كانوا متورطين في تجارة العبيد.

ومن دراسة المصادر الأدبية التي تناولت نشاط القرصنة، فقد تبين أن رواية المصادر عن تضخم ظاهرة القرصنة في ذلك الوقت كانت مستندة إلى وقائع حقيقية، إلا أن المبالغة في الوصف الذي تناولته كانت واضحة وجليّة أيضًا. وربما يعود السبب في تلك المبالغة إلى الأسباب الآتية:

1- محاولة إظهار حجم الخطر الذي كانت تشهده روما بسبب أزمة الحبوب، وذلك بالتهويل من حجم الخطر الذي مثله القراصنة.

2- محاولة التمجيد من عظمة روما العسكرية، بتغلبها على عدو قوي جداً؛ أي القراصنة.

3- إن اتفاق المصادر الأدبية على تضخم ظاهرة القرصنة لا يعد دليلاً على حقيقة تلك المعلومات؛ ذلك أن معظم المصادر لم تكن معاصرة لتلك المدّة، ما يعني أنها قد اعتمدت في وصفها رواياتاً سابقة.

4- كان شيشرون أهم المصادر المعاصرة لتلك المرحلة، ومن المعروف أن خطابات شيشرون كانت ترمي إلى تحقيق مكاسب سياسية بالدرجة الأولى، أكثر من اهتمامه برواية الحقائق التاريخية، وهذا ما يفسر مبالغته في تصوير خطر القراصنة.

كشفت دراسة الحملات العسكرية التي شنتها روما ضد القراصنة، عن وجود دوافع خفية، تتخطى حدود واجب القضاء على القراصنة، وتأمين البحار؛ إذ إن الحملات العسكرية التي أرسلتها روما ضد القراصنة كانت تتخذ من محاربة القرصنة ذريعة للهيمنة العسكرية، وتحقيق الأطماع الاستعمارية، مثلما هي سياسة الولايات المتحدة اليوم، القائمة على اتخاذ "مكافحة الإرهاب، أو نزع السلاح النووي" ذريعة للتدخل العسكري في الدول ذات السيادة.

وقد كانت حملة بومبيوس ماغنوس ضد القراصنة أكبر الحملات العسكرية، وأكثرها شهرة، بوصفها -بنظر المصادر- قد أنقذت الجمهورية من خطر الانهيار. ومع أنه لا يمكن إنكار إسهام "حملة بومبيوس" في التقليل من خطر القراصنة في حوض البحر المتوسط، إلا أنه

لا يمكن الأخذ برواية المصادر القائلة: إن تلك الحملة هي التي قضت على خطر القرصنة نهائياً أيضاً، وذلك لأسباب عدة:

1- التناقض في روايات المصادر، إذ أظهرت المصادر القرصنة بهيئة العدو

الذي لا يُقهر بسهولة، ومن ثم أظهرت نجاح بومبيوس في القضاء عليه في

أقل من ثلاثة أشهر، حتى من دون الخوض في معارك دامية!

2- إن حجم القوة العسكرية التي أُعطيت لبومبيوس، والسلطة المطلقة التي

حُوِّلت له، تكشف بوضوح الرغبة في تسليم قيادة العمليات العسكرية في

الشرق لبومبيوس منذ بداية الحملة.

3- استمرار نشاط القرصنة بعد حملة بومبيوس، وظهور خطرهم من جديد عند أول

فرصة مناسبة.

وتخلص الدراسة إلى نتيجة مفادها: إن تضخم نشاط ظاهرة القرصنة في تلك المرحلة

من تاريخ حوض المتوسط كان مرتبطاً بعوامل عدة، وتلك العوامل كانت من تبعات سياسة بسط

الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط. ودليل ذلك خمود نشاط القرصنة بالتزامن مع تمام

الهيمنة الرومانية على حوض البحر المتوسط، وإحلال السلام والأمن في أنحاء جميعها.



المصادر، والمراجع

1- قائمة المصادر الأدبية (Literary Sources) :

- 1- Appian, (1912), **Roman History**, translated by Horace White, Four volumes, LCL London.
- 2- Cicero, (2014), **Orations**, Translated by C. D. Yonge, Delphi Classics.
- 3- Diodorus, (1989), **Diodorus's History**, Translated by C. H. Oldfather, LCL London.
- 4- Florus, (1929), **Epitome of Roman History**, Translated by E. S. Forster, London.
- 5- Herodotus, (1920), **The Histories**, Translated by A.D. Godley. Cambridge.
- 6- Livius, (1905), **The History of Rome**, Translated by C. Roberts, London.
- 7- Pausanias, (1918), **Pausanias' Description of Greece**. Translated by W.H.S. Jones and H.A. Ormerod, Cambridge London.
- 8- Plutarch, (2013), **Parallel Lives**, Translated by B. Perrin, , Delphi Classics.
- 9- Polybius, (1922), **The Histories**, Translated by W. R. Paton, LCL London.
- 10- Strabo, (2014), **The Geography of Strabo**, Translated by H. C. Hamilt, Three volumes, London.
- 11- Thucydides, (1919), **History of the Peloponnesian War**, Translated by C.F. Smith, Cambridge.

2- قائمة المراجع العربية والمعرّبة :

- 1- تارن، و. و.، (1954)، الحضارة الهلنستية، تر: عبد العزيز جاويد، القاهرة.
- 2- الجوهري، يسرى، (1989)، جغرافية البحر المتوسط، الإسكندرية.
- 3- علي، عبد اللطيف أحمد، (1974)، التاريخ اليوناني - العصر الهلّادي، ج2، القاهرة.
- 4- علي، عبد اللطيف أحمد، (1988)، التاريخ الروماني "عصر الثورة"، القاهرة.
- 5- علي، عبد اللطيف أحمد، (2009)، التاريخ الروماني، دار النهضة بيروت.
- 6- عمران، رجب سلامة، (2010)، الفكر العسكري الروماني بين الدفاع والهجوم والتوسع والاستعماري، القاهرة.
- 7- ماخوفسكي، ياتسيك، (2008)، تاريخ القرصنة في العالم، تر: أنور إبراهيم، القاهرة.
- 8- مختار، ناير، (2018)، التجارة البحرية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة، جامعة وهران.
- 9- الناصري، سيد أحمد علي، (1982)، تاريخ الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة.
- 10- نصحي، إبراهيم، (1973)، تاريخ الرومان 133-44 ق.م، القاهرة.
- 11- نصحي، إبراهيم، (1976)، تاريخ مصر في عصر البطالمة، ج1، القاهرة.
- 12- نصحي، إبراهيم، (1978)، تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام 133 ق.م، القاهرة.

3- قائمة المراجع الأجنبية (References) :

- 1- Arnaud, Pascal, (2005) Les Routes de la Navigation Antique; Itinéraires en Méditerranée, Paris.
- 2- Atauz, Ayse Devrim, (2004), Trade, Piracy, And Naval Warfare In Central Mediterranean, Texas.
- 3- Badel, Christophe, (2014), Grand Atlas de l'Antiquité Romaine, Paris.
- 4- Beek, Aaron, (2006), Pirates, Leistai, Boukoloï, and Hostes Gentium of The Classical World, Minnesota.
- 5- Beek, Aaron, (2015), Freelance warfare And Illegitimacy, The Historian's Portrayal of Bandits, Pirates, Mercenaries and Politicians, Minnesota.
- 6- Bradford, Alfred, (2007), Flying The black Flag, London.
- 7- Braitis, Samuel, (2016), Military Threat of Political Tool; An Examination of Mithridates VI Eupator of Pontus As a Threat of Roman Republic from 88-63 B.C, Claremont.
- 8- BRAUDEL, PAULE, (2001), The Mediterranean in the Ancient World, London.
- 9- Brulé, Pierre, (1978), La piraterie crétoise hellénistique, Université de Franche-Comté.
- 10- Castillo, Dennis, (1958), The Maltese Cross, A Strategic History of Malta, London.
- 11- Cummings, Elizabeth, , (2014), Crete and The Hellenistic Aegean; Seeing Through the Cretan Mirage, Colorado.
- 12- Davie, Catherine, (2012), An Introduction to the History of Roman Seafaring, Brandeis.
- 13- Davis, Danny Lee, (2009), Commercial Navigation in the Greek and Roman World, Texas.
- 14- De Souza, Philip, (1992), Piracy in The Ancient World; From Minos to Mohammed, Cambridge.

- 15- De Souza, Philip, (1999), Piracy in the Greco-Roman World, Cambridge.
- 16- Dzino, Danijel, (2005) Illyrian Policy of Rome in The Late Republic and Early Principate, Adelaide.
- 17- Eric, Brousseau, (2010), Politics and policy: Rome and Liguria, 200-172 B.C., Montreal.
- 18- Erskine, Andrew, (2005), A Companion to the Hellenistic World, Oxford.
- 19- Fish, Joanne, (2017), A Cross-Disciplinary Approach to the Maritime; Security Risk of Piracy.
- 20- Hall, F.R., (1898), The Roman on The Riviera and The Rhone, Cambridge.
- 21- Hornblower, Simon and Spawforth, Antony, (2012), The Oxford Classical Dictionary, Oxford, 4th Edition.
- 22- Jones, A.H.M, (1971), The Cities of the Eastern Roman Provinces, Oxford.
- 23- Lewis, David M., (2019), PIRACY AND SLAVE TRADING IN ACTION IN CLASSICAL AND HELLENISTIC GREECE, University of Edinburgh .
- 24- Mommsen, Theodor, (1862), The History of Rome, Cambridge.
- 25- Nash, John Mathew, (2018), Rulers Of The Sea- Strategy and Sea Power in Ancient Greece 550- 321 B.C, Australian National university.
- 26- Ormerod, Henry, (1924), Piracy in The Ancient World, Liverpool.
- 27- Osgood, Josiah, (2010), Caesar and the Pirates, Georgetown.
- 28- Pitassi, Michael, (2012), The Roman Navy, Ships, Men, and Warfare 350 B.C – 475 A.D, Britain.
- 29- Rainey, Sean, (2004), The Nature of Carthaginian Imperial Activity, Trade, Settlement, Conquest and Rule, Canterbury.
- 30- Reardon, Gail, (1997), Ignoble Robbers; Bandits and Pirates in The Roman World, Tasmania.

- 31- Robinson, Joshua, (2009), Pompey's Organization of the East, Florida.
- 32- Rostovtzeff, M, L, (1941), Social and Economic History of the Roman Empire (2nd edn.ed. P.M. Fraser), Oxford.
- 33- Rhys, Ernest, (1928), Atlas of Ancient and Classical Geography, New York.
- 34- Sestier, Jules-Marie, (1880), LA Piraterie Dans L'Antiquite, Paris.
- 35- Steel, S.E.W., (2001), Cicero; Rhetoric and Empire, Oxford.
- 36- Travers, Tim, (2009), Pirates; A History, London.
- 37- Trimboli, Michael, (2016), Piracy; Lessons From The Past, Calgary.
- 38- Varenne, Clément, (2013), La piraterie dans la Méditerranée antique: représentations et insertion dans les structures économiques, Toulouse.
- 39- Vogiatzakis, I.N., Pungetti, G., (2008), Mediterranean Island Landscapes, University of Reading.
- 40- Wilkes, John, (1995), The Illyrians, Cambridge.
- 41- Willetts, R.f., (1977), The Civilization of Ancient Crete, California.
- 42- Willoughby, Jack, (2018), Interventions By Roman Republic in Illyria 230-167 B.C, Exeter.
- 43- woolmer, mark, (2008), The Athenian mercantile community, Cardiff University.
- 44- Yuito, Ishikawa, (2018), Maritime Governance; How State Capacity Impacts Piracy and Sea Lane Security, Williamsburg.

4-الموسوعات الإلكترونية:

الموسوعة البريطانية ————— "Britannica" www.britannica.com

ملحق الخرائط

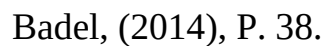
الخريطة رقم (1):

تُظهر الخريطة مواقع أهم جزر البحر المتوسط.

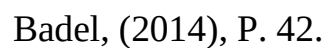


Davis, (2009), P. 254.

تبين الخريطة التوسّع الرومانيّ في القرن الثاني قبل الميلاد.



تبيّن الخريطةُ التوسّعَ الرومانيّ بين عامي 115-30 ق.م.



الخريطة رقم (4):

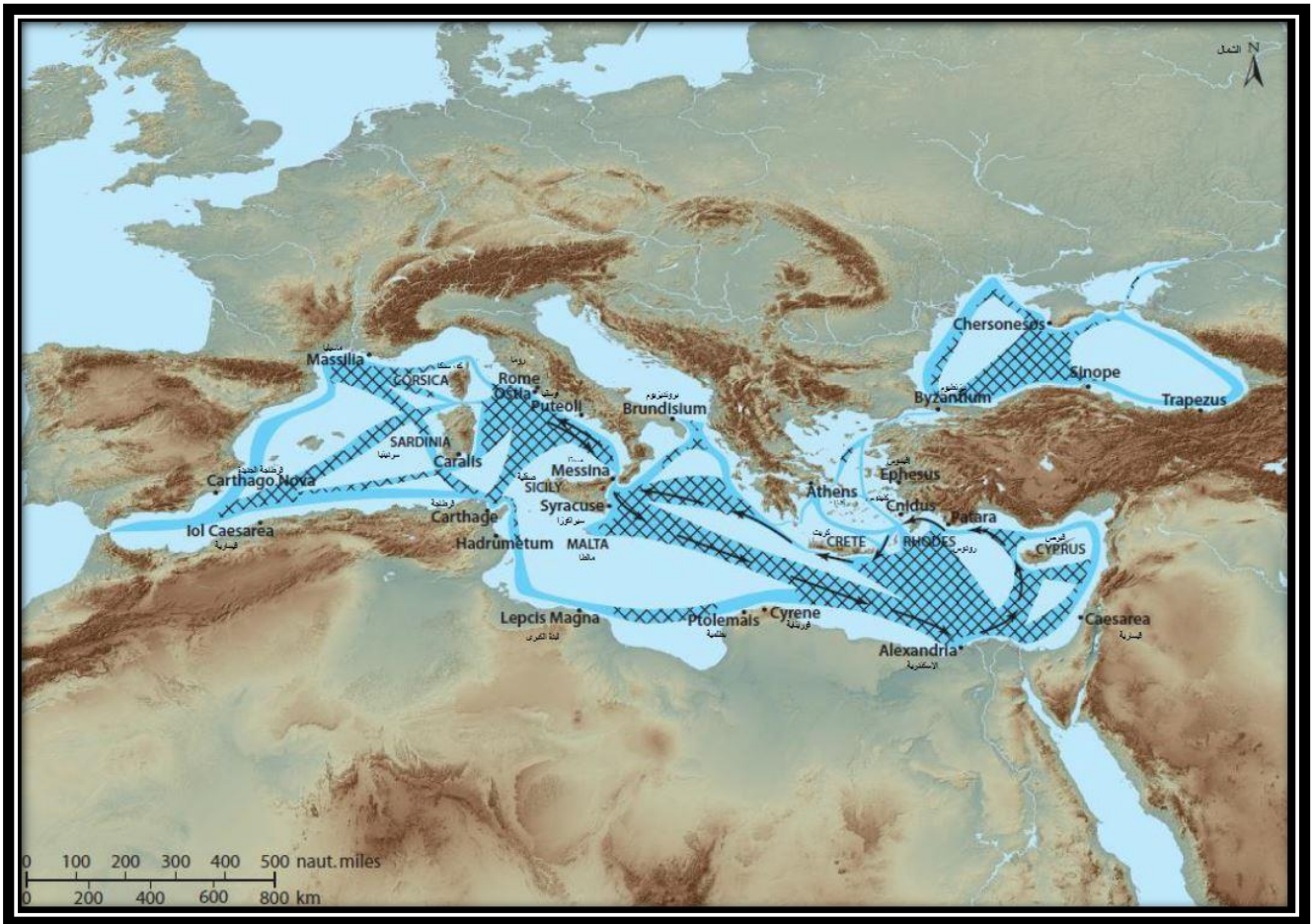
تُظهر الخريطة الخصائص الجغرافية لسواحل في البحر المتوسط.



Davis, (2009), 251.

الخريطة رقم (5):

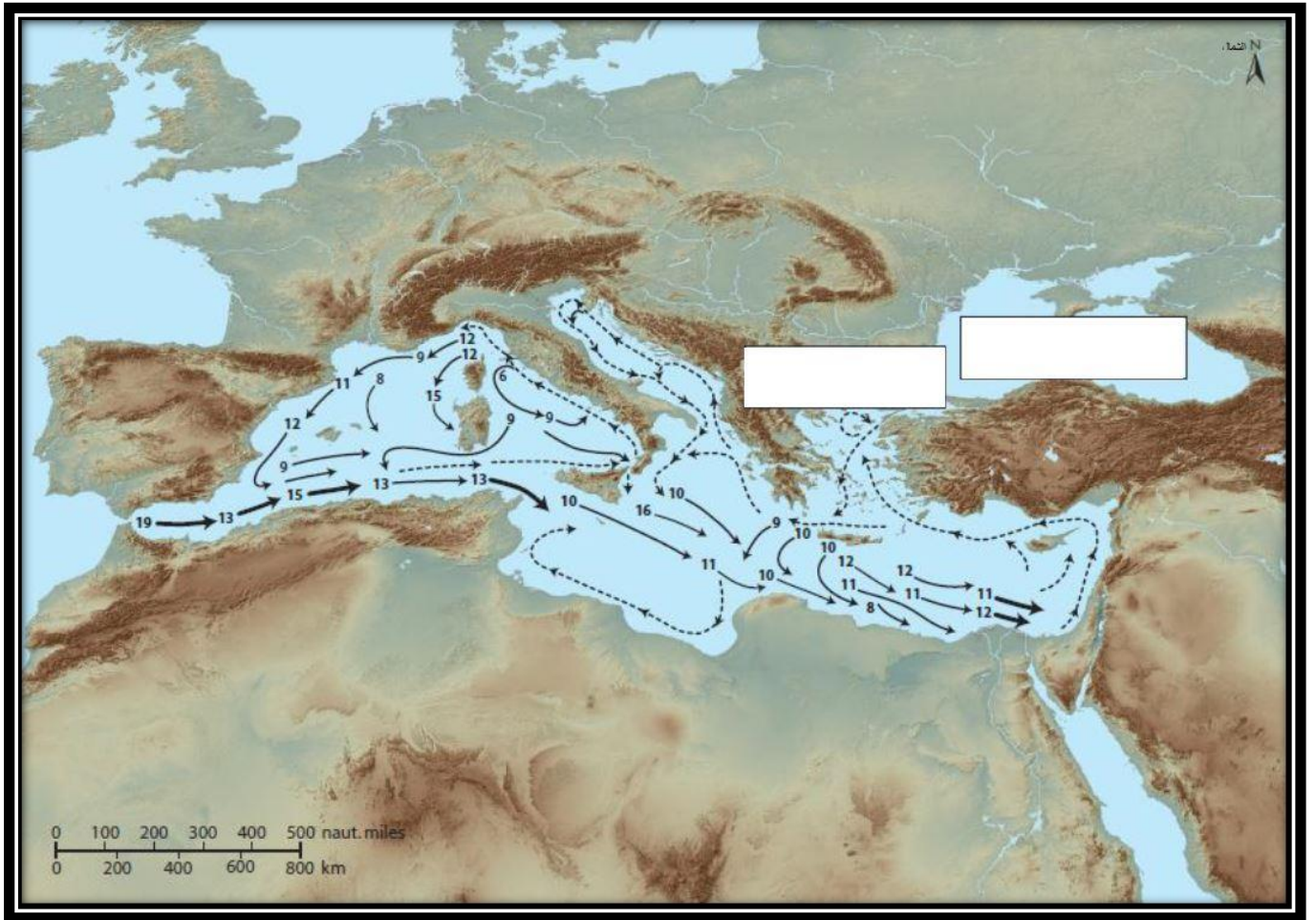
تُظهر الخريطة أهم الممرات البحرية في البحر المتوسط.



Davis, (2009), p. 271.

الخريطة رقم (6):

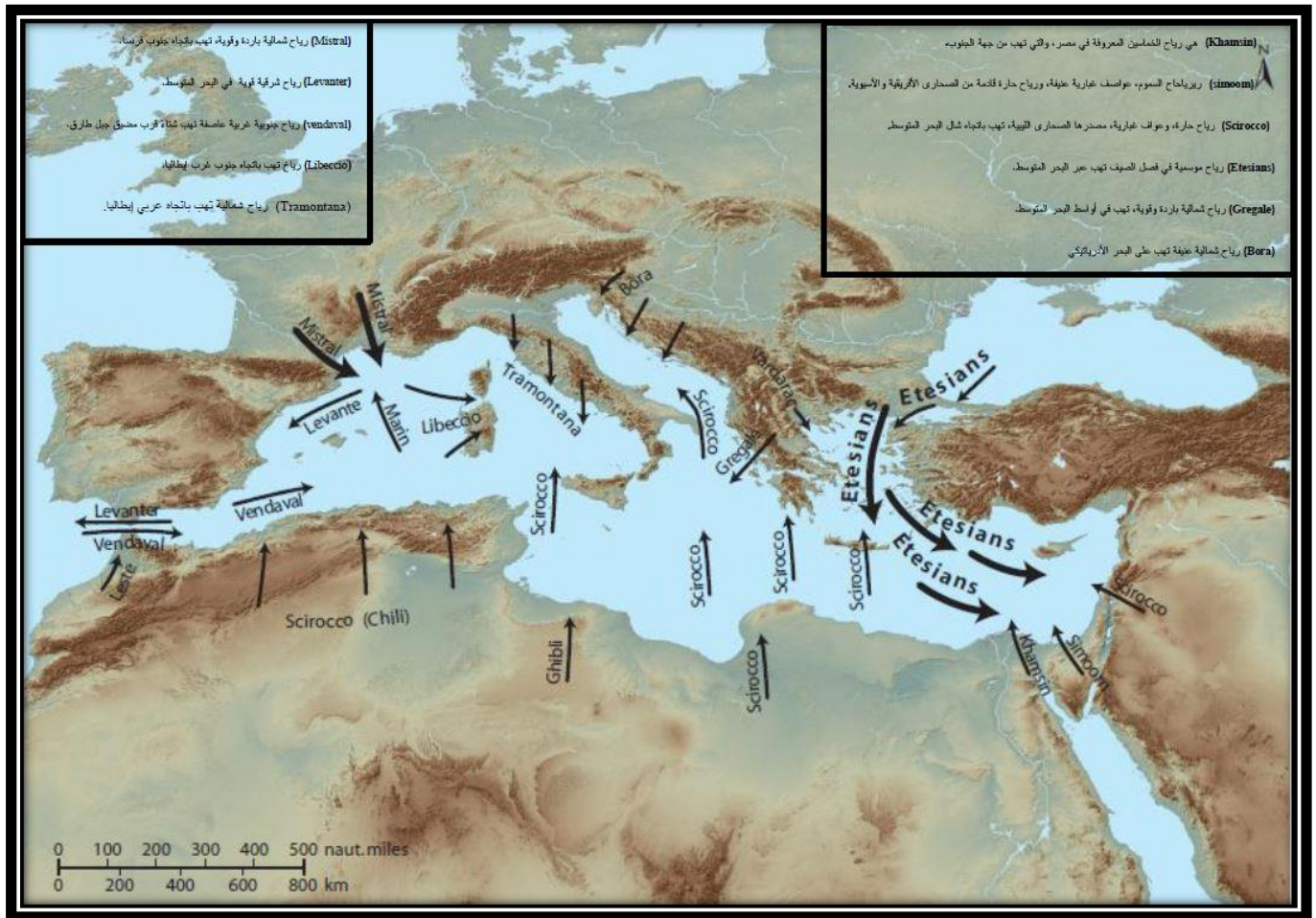
تُظهر الخريطة اتجاه التيارات البحرية في البحر المتوسط.



Davis, (2009), p. 255.

الخريطة رقم (7):

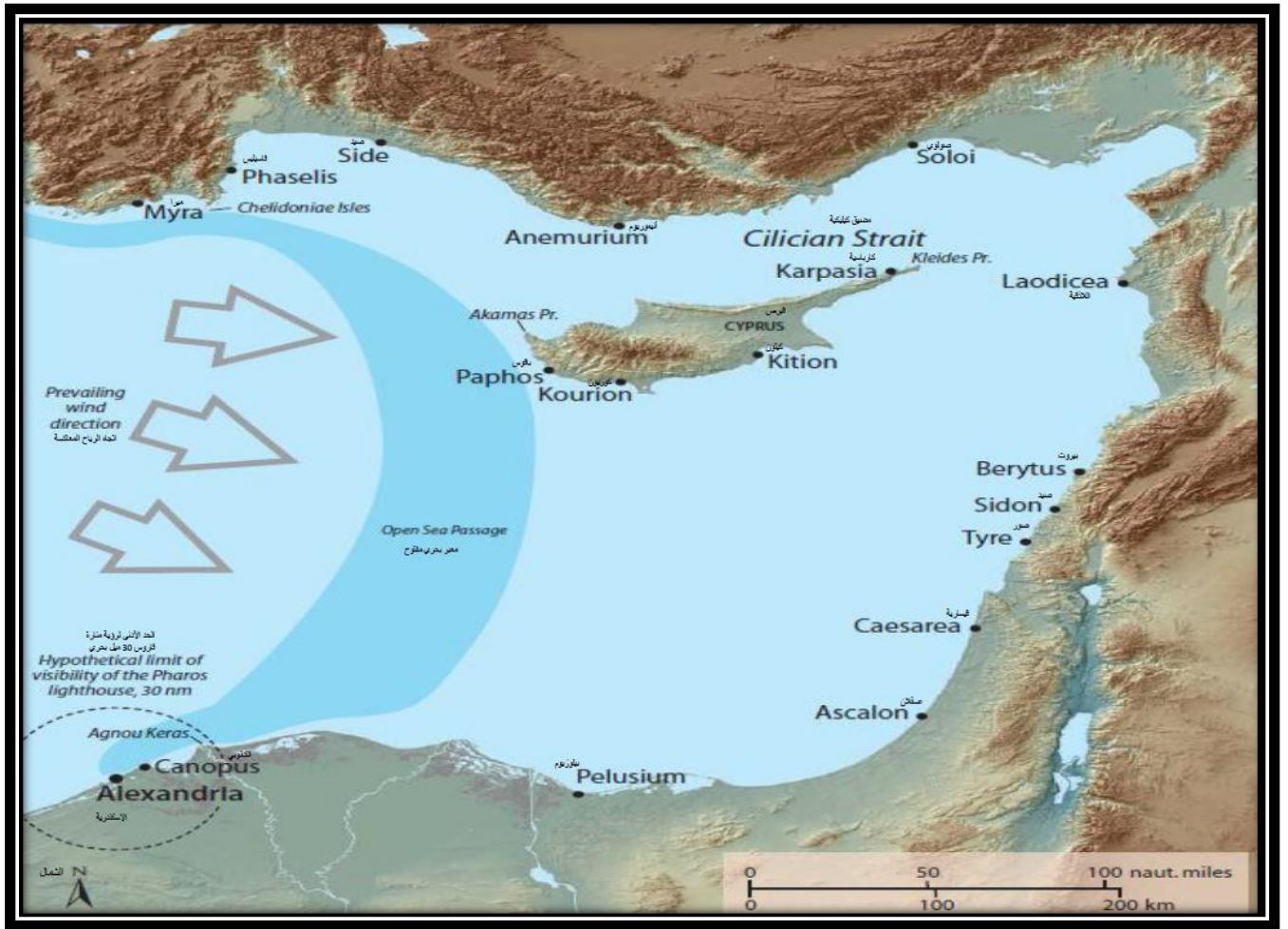
تُظهر الخريطة اتجاه الرياح في البحر المتوسط.



Davis, (2009), P. 260.

الخريطة رقم (8):

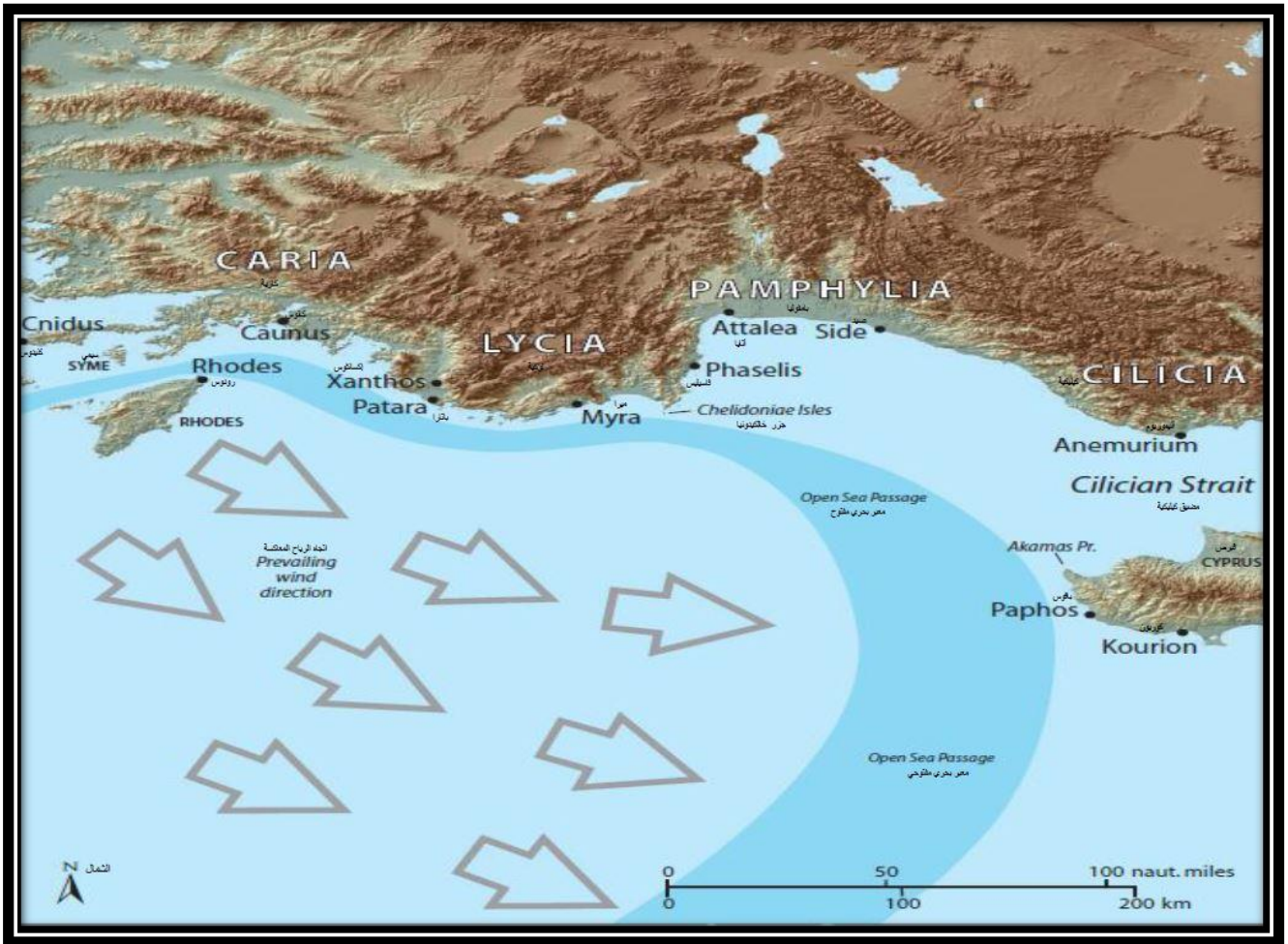
تُظهر الخريطة جزءًا من المسار الملاحيّ من ميناء الاسكندرية إلى إيطاليا.



Davis, (2009), p. 286.

الخريطة رقم (9):

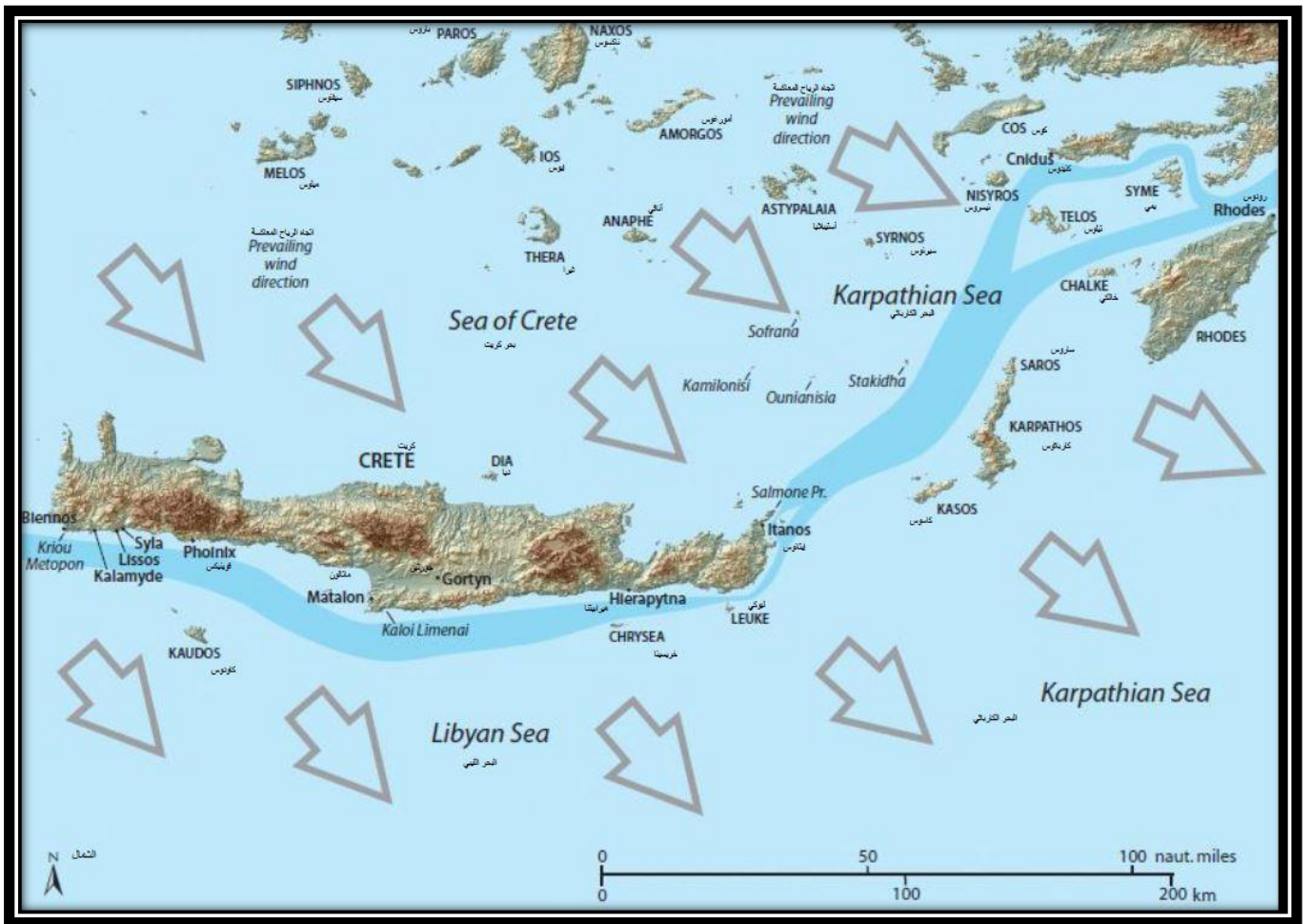
تظهر الخريطة جزءًا من المسار الملاحي من ميناء الاسكندرية إلى إيطاليا (على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى، بين جزيرتي قبرص ورودرس).



Davis, (2009), p. 287

الخريطة رقم (10):

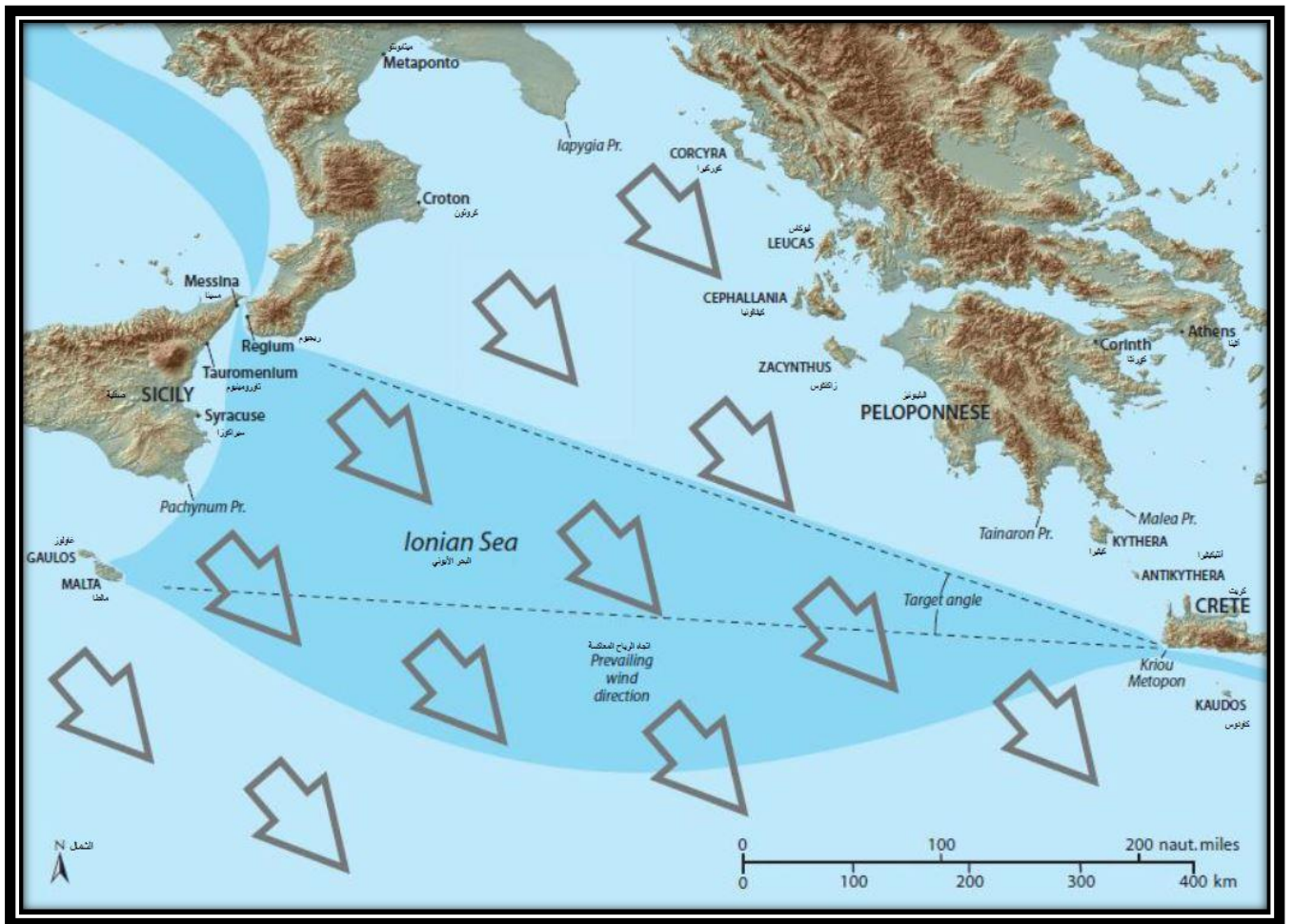
تظهر الخريطة جزءاً من المسار الملاحى من ميناء الاسكندرية إلى إيطاليا (بين جزيرة رودوس، ونهاية جزيرة كريت).



Davis, (2009), p. 288.

الخريطة رقم (11):

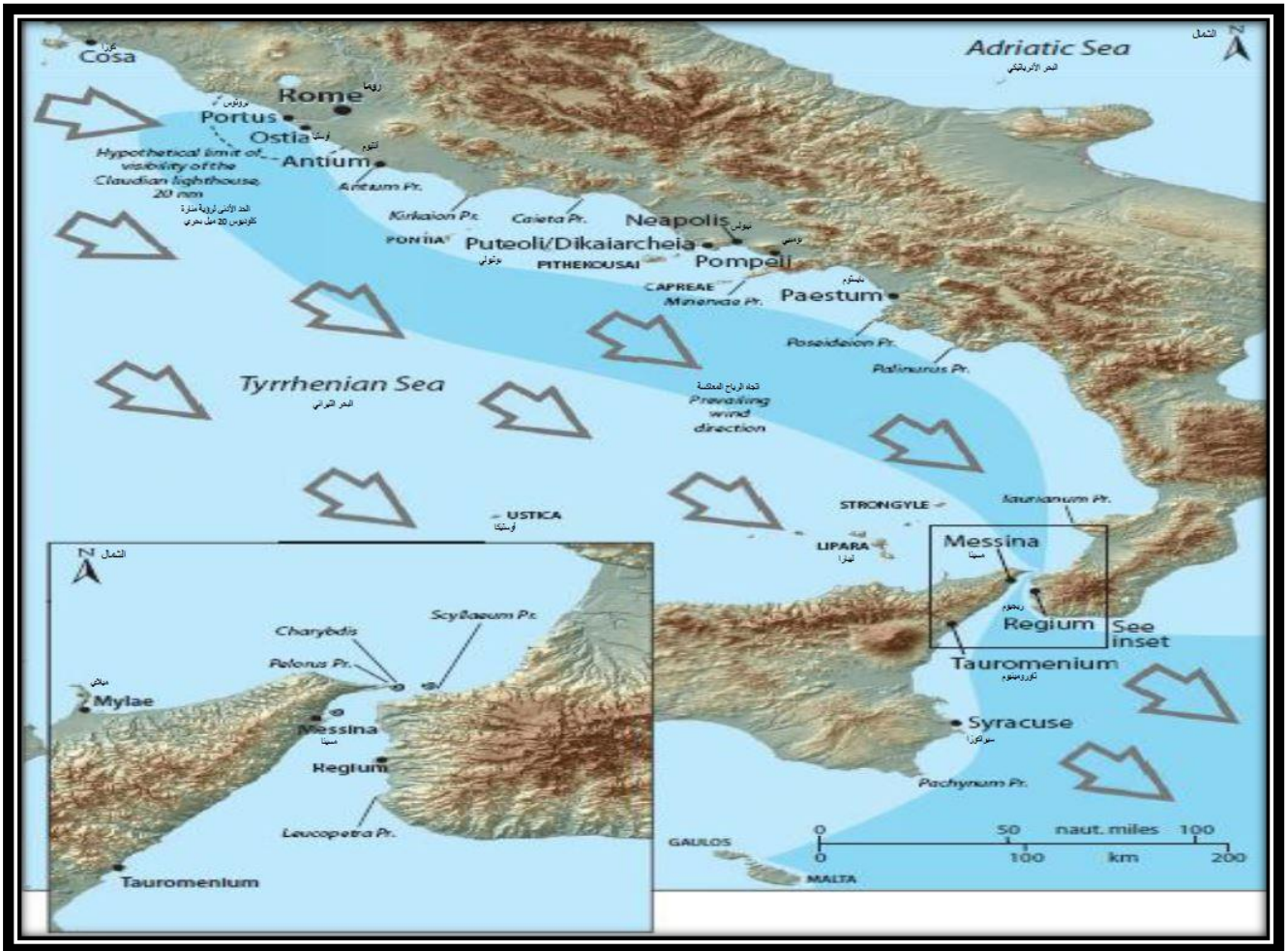
تظهر الخريطة جزءًا من المسار المائي من الاسكندرية إلى إيطاليا (من جزيرة كريت عبر البحر الأيوني حتى مضيق مسينا).



Davis, (2009), p. 289.

الخريطة رقم (12):

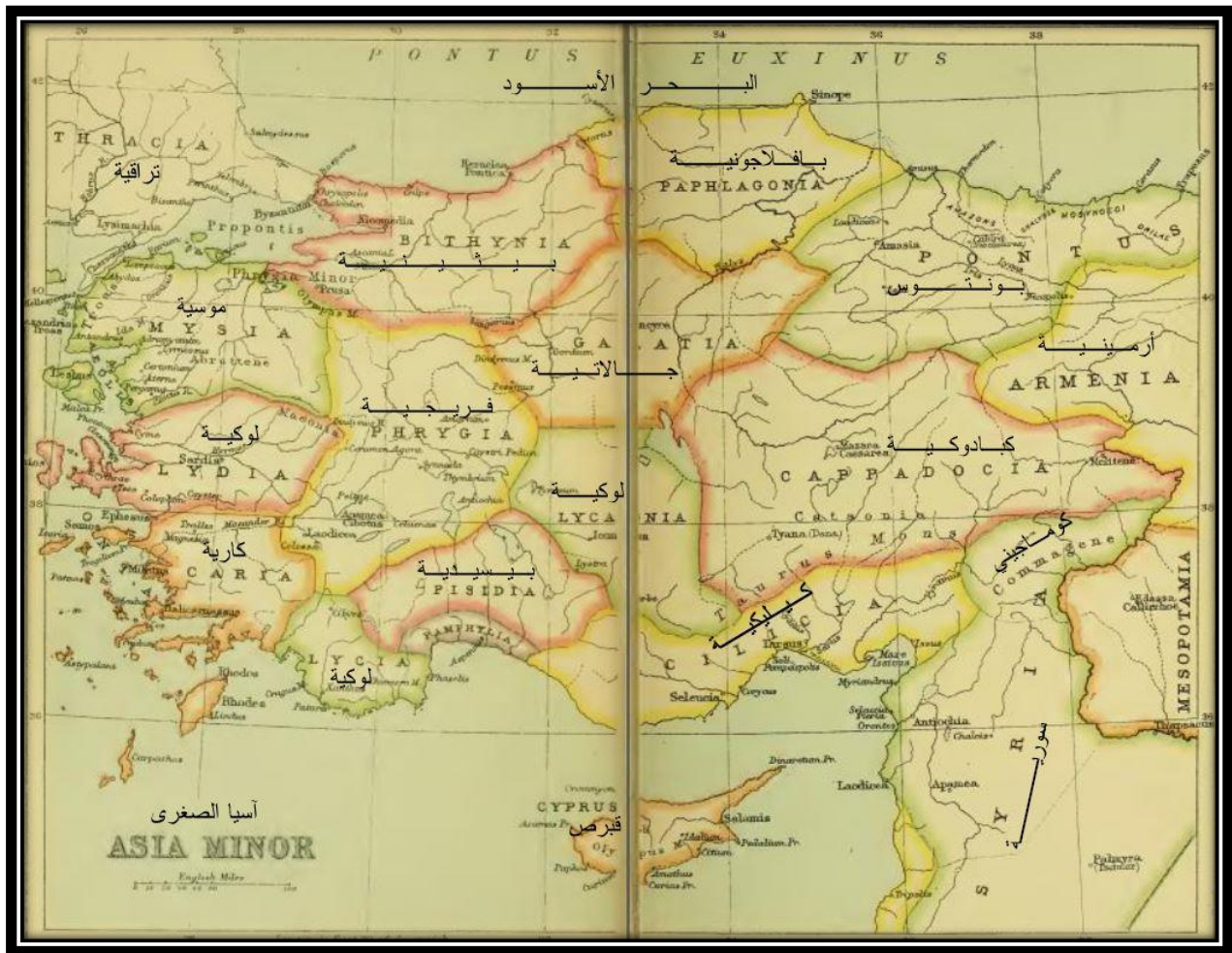
تظهر الخريطة جزءاً من المسار الملاحي من ميناء الاسكندرية إلى إيطاليا (من مضيق مسينا عبر البحر التيراني إلى موانئ إيطاليا).



Davis, (2009), p. 290.

الخريطة رقم (13):

تظهر الخريطة منطقة كيليكية بحدودها السياسية بوصفها واحدة من دول آسيا الصغرى.



Rhys, (1924), P. 56- 57.

الخريطة رقم (14):

تظهر الخريطة منطقة إيليرية (Illyricum) بما فيها سهول بانونيا.



Rhys, (1924), P. 42- 43

الخريطة رقم (15):

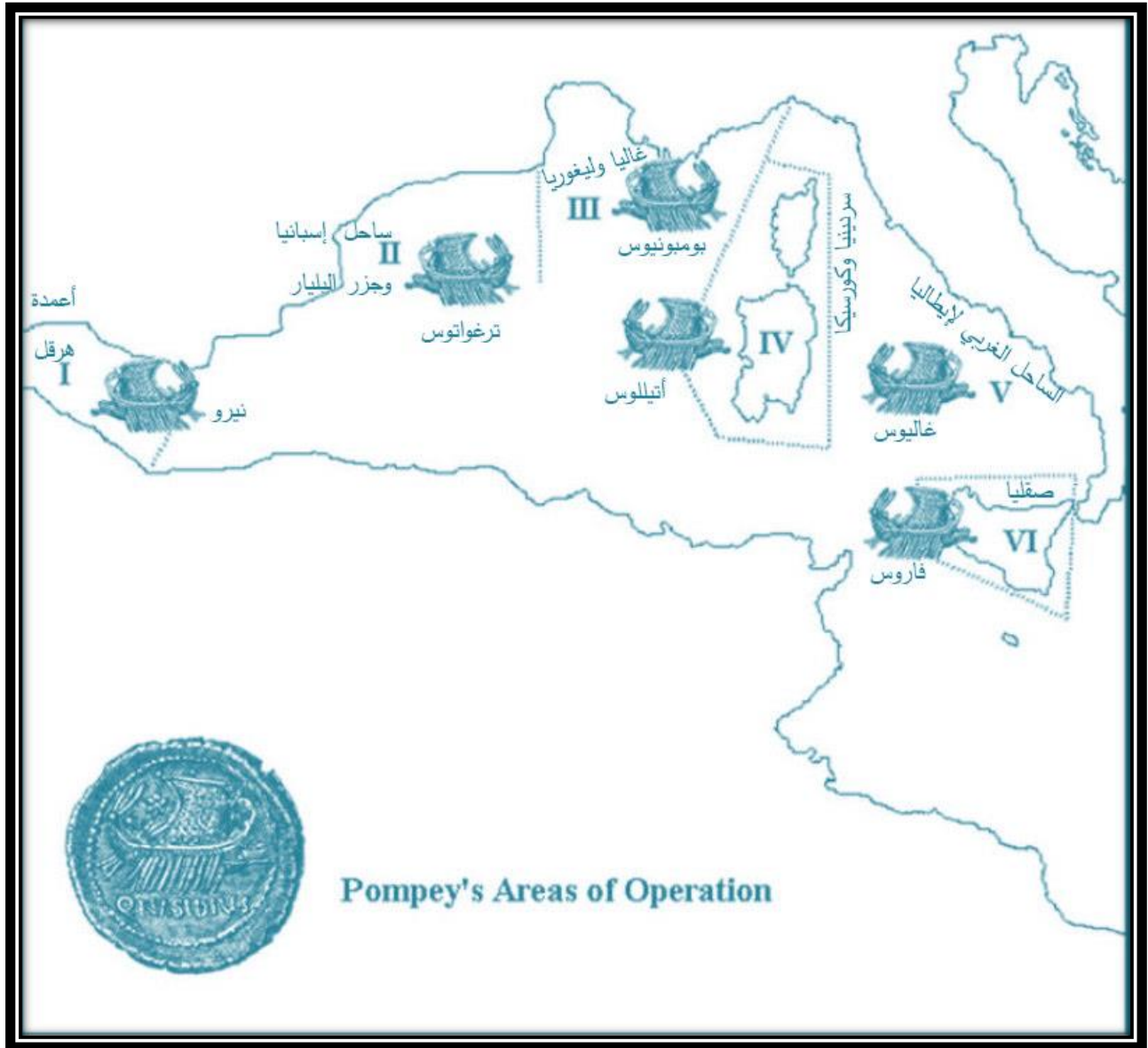
تظهر الخريطة منطقة ليغوريا.



Rhys, (1924), P. 22- 23.

الخريطة رقم (16):

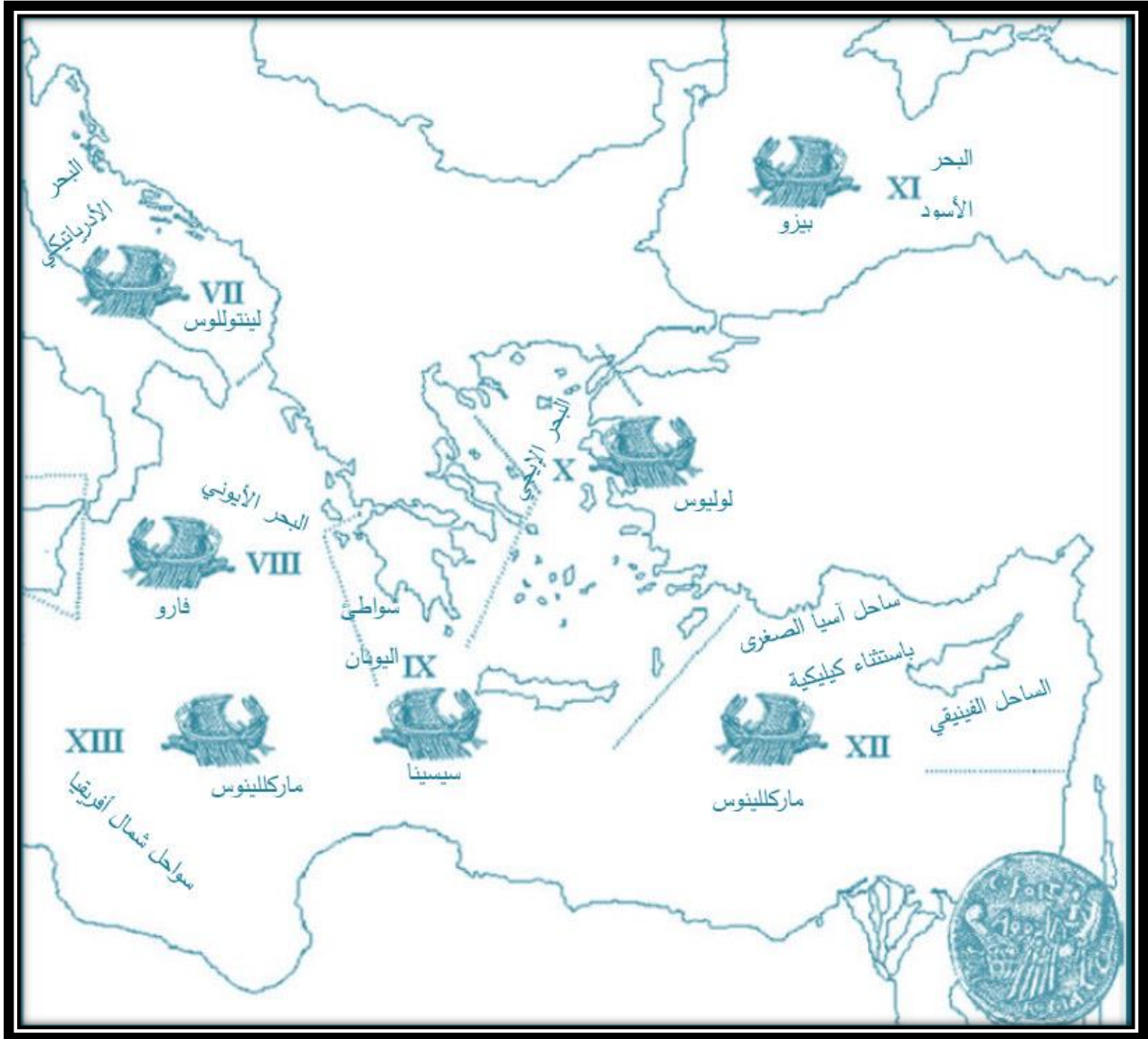
تُظهر الخريطة مواقع العمليات العسكريّة في الحوض الغربيّ للمتوسّط، وأسماء القادة.



Bradford, (2007), p. 52.

الخريطة رقم (17):

تظهر الخريطة مواقع العمليات العسكرية في الحوض الشرقي للمتوسط، وأسماء القادة.



ملحق الجداول

الجدول رقم (1):

يقدم إحصائية عدد الكلمات الدالة على "القرصنة" في المصادر الإغريقية.

المؤلف	λησταί (الصوص)	Πειραταί (القرصان)
هوميروس	6	0
هيرودوت	1	0
ثوكوديديس	10	0
أفلاطون	4	0
ديموسينثيس	22	0
إكسينوفون	11	0
بوليبوس	2	5
ديودور الصقلي	31	9
استرابو	25	2
أبيان	33	2
بلوتارخ	34	12
ديو كاسيو	18	3
خاريتون	27	7
آخيل تاتيوس	65	5

Varrenne, (2013), p. 19.

الجدول رقم (2):

يقدم إحصائية عدد الكلمات الدالة على "القرصنة" في المصادر اللاتينية.

المؤلف	Praedo (السارق)	Praedo Maritimu s (سارق البحر)	Latro (اللس)	Latro Maritimu s (لس البحر)	Pirata (القرصان)
شيشرون	73	8	44	6	39
بليني الأكبر	1	0	8	0	4
سينيكا	1	0	7	0	6
سينيكا الأب	3	0	43	0	17
فلوروس	1	0	4	1	12
تيتوس ليفوس	34	6	54	0	9
بيترون	1	0	4	0	2
بلوتوس	8	1	3	0	0
فاليريوس ماكسيموس	3	1	1	1	0
قيصر	1	0	3	0	0
هوراس	1	0	0	0	0
أوفيد	1	0	1	0	0
تاكيتوس	1	0	1	0	0
سالوستوس	3	0	1	0	0
سويتونيوس	1	0	0	0	1
لوكريسيوس	1	0	0	0	0
الجموع	134	13	166	8	90

Abstract

Rome's foreign Policy led to a set of changes in the entire area of the Mediterranean Basin, and an imbalance of power on the international stage, which resulted in a state of security vacuum in the Mediterranean, which lasted approximately between the middle of the third and first centuries B.C. In the core of this security vacuum, and chaos resulting from the policy of Roman domination, the pirates found a fertile environment for their activities, and an ideal opportunity to carry out piracy on a large scale that the history of region had not seen before. Where the pirates turned many regions into fortified strongholds from which they launched raids on ships passing nearby, and even on ports and coastal cities. And since Rome had become the Master of the Mediterranean Basin, and the Dominant major power in It; it assumed the task of fighting pirates and developing solutions to reduce this phenomenon.

Keywords: Piracy, Pirates, Roman Domination, Security vacuum, Slave trading, kidnap and Ransoming, mercenaries, Magnus Pompeius Campaign.





Syrian Arab Republic

Damascus University

Faculty of Arts and Human Sciences

Department of History

**Piracy Phenomenon under Roman Domination
of the Mediterranean Basin
241- 31 B.C.**

**A dissertation submitted in partial fulfillment of the
requirements for the degree of Master in The Ancient
History**

By

Tamer Yosof Abo Saeb

Supervisor

Dr. Taghreed Shaban

2023